ذاكرة الشعوب

٢٤

فريدريك دوغلاس

مذكرات عبد أميركي

ترجمة:

إبراهيم عبد المجيد



مؤسسة الأبحاث العربية



مذكّرات عبد أميركي

فريدريك دوغلاس

مذكرات عبد أميركي


مؤسسة الأبحاث العربية ش.م.م.
ص.ب: ٥٠٥٧-١٣ (شوران) بيروت - لبنان

* فريدريك دوغلاس : مذكرات عبد اميركي
* الطبعة العربية الأولى ١٩٨٦ .

* الناشر: **مؤسسة الأبحاث العربية ش. م. م.**
ص. ب ١٣/٥٠٥٧ (شوران) بيروت، لبنان .
هاتف : ٨١٠٠٥٥/٦، تلكس ٢٠٦٣٩ دلتا ، لبنان .
- Isitute for Arab Research (Rawafid) ltd., Nicosia - Cyprus,
P. O. Box: 7047, Tel: (357) 2-452670 Tlx: 5223 RAWAFID - CY.
* العنوان الأصلي لهذا الكتاب هو: **«قصة حياة فريدريك دوغلاس، عبد اميركي بقلمه»**.

* تصميم الغلاف: **نجاح طاهر**.

شيئان في تاريخ أمريكا لا مثيل لهما في تاريخ أمة من الأمم . الأول هو إبادة الهنود الحمر ، السكان الأصليين للقارة ، والثاني هو استعباد الزنوج .

لقد انتهى أثر الهنود تقريباً ، ولم يبق منهم غير جماعات هامشية توجد أساساً في جنوب القارة . باختصار فإنهم تعرضوا للإبادة الجماعية . ولم يكن الحال كذلك مع الزنوج ، فتاريخياً هم أحدث ظهوراً على مسرح الأحداث ـ في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر ، وغرباء عن القارة جلبوا اليها من أفريقيا في رحلات كبرى لاصطيادهم من مواطنهم ، وحشرهم في ظروف أقل من الحيوانية داخل السفن التي تعود بهم إلى موانىء الجنوب الأمريكي ، حيث يباعون في مزادات علنية . لقد قامت في امريكا تجارة كاملة للزنوج لها مؤسساتها ورجالها ونظمها ، وغذت ذلك فلسفة عنصرية تتشدق بالدور الحضاري والمتميز للرجل الأبيض .

ولقد وجدت مأساة الزنوج شكلها الأكبر في ولايات الجنوب . في كل الولايات تقريباً شمالاً وجنوباً كان هناك احساس بالتميز عند الرجل الأبيض ، لكن في الجنوب فإن المأساة كانت حقيقية وكاملة ، حيث تجارة العبيد واستغلالهم في المزارع الواسعة . ومنذ وقت قريب شغلت العالم كله رواية «جذور» للكاتب الأمريكي الزنجي اليكس هيلي ، وخاصة حين

تحولت إلى مسلسل تلفزيوني أخاذ . لقد أعادت الرواية والمسلسل إلى الأذهان صورة المكابدات العظمى للزنوج تحت وطأة نظام لم تعرف الانسانية مثل بشاعته ، إلا وهو « العبودية في العصر الحديث » !

لقد كان للحرب الأهلية الأمريكية في ستينات القرن الماضي الدور الحاسم في الانهاء رسمياً على تجارة العبيد ، وفي تحريرهم ، ولكن ظل في الوجدان الأمريكي كراهية للملونين . وظل الزنوج لوقت طويل ـ وحتى الآن ـ يجدون ألواناً مختلفة الدرجات من التفرقة والتمييز .

لقد اختلف موقف المستوطن الأمريكي من الزنوج عنه من الهنود ، ففي الوقت الذي أباد فيه بوحشية لا مثيل لها القبائل الهندية ذات الثقافات القديمة الغنية ، وأصحاب الأرض الأصليين ، فإنه لم يعمل على ابادة الزنوج . بل هو الذي أدخلهم الى القارة ، وكان يعتبرهم جزءاً من قوته ورأسماله . وحتى يتم له ذلك ، جاهد ببشاعة لمحو ثقافتهم وطمس أي أثر يدل على علاقة من أي نوع لهم بالجنس البشري ! . من بين هؤلاء الزنوج حاول الكثيرون الهرب إلى الولايات الشمالية ، وإلى كندا ، ومن بين الذين نجحوا في الهرب ، كان فريدريك دوغلاس ، مؤلف هذه السيرة وصاحبها . لكنه كان مختلفاً عن غيره ، لقد كان فهمه للعبودية مبكراً وكان هروبه مبكراً أيضاً ، ولقد انضم في الشمال إلى الجماعات المناهضة للعبودية ، وأصبح من أكبر رجالها وخطبائها وقائداً متحمساً لبني جنسه من الملونين ، ثم أصبح وزيراً في الحكومة الاتحادية بعد الحرب .

إن قصة قديمة مضى عليها أكثر من قرن من الزمان ، لكنها لم تزل حية نابضة ، فهي قصة روح معذبة ، واضطهاد لا مثيل له ، لا يكتبها إلا من عاشها وكابدها .

إنها تصور بصدق بالغ التأثير فظاعة الحياة في المزارع الواسعة في الجنوب الأمريكي تحت مظلة العبودية، وتضرب عميقاً في النفاذ إلى جوهر العبودية ، والأعمال اللاإنسانية لملاك العبيد . وهي وإن كانت تفسر لنا لماذا

تعاني أمريكا الآن من آثار الماضي ، فلعلها أيضاً تفسر لنا سلوك أمريكا مع الأمم الصغيرة هذه الأيام . . . ، ، ،

المترجم

تقديم

في نوفمبر عام ١٨٤١ دعيت إلى اجتماع مناهض للعبودية في ولاية « نانتوكت » . في هذا الاجتماع سعدت بالتعرف إلى فريدريك دوغلاس كاتب السيرة التالية . لقد كان غريباً تقريباً عن كل أعضاء ذلك الاجتماع ، وكان هارباً حديثاً من سجن العبودية في الجنوب ، ويتشوق إلى تأكيد مبادىء وقيم المناهضين للعبودية ، الذين سمع عنهم بعض التفسيرات الغامضة حين كان عبداً . هذا ولقد دعي للاجتماع وسمح له بالحديث ، رغم أنه كان يعيش في ذلك الوقت في نيوبدفورد .

لقد كان من حسن الطالع . . حسن الطالع للملايين من اخوته المقيدين المتلهفين للخلاص من استعبادهم المرعب ، ومن حسن الطالع لقضية تحرير الزنوج وللحرية في العالم ، ومن حسن الطالع للأرض التي ولد عليها والتي فعل الكثير لينقذها ويباركها ! ومن حسن الطالع للدائرة الكبيرة من أصدقائه ومعارفه الذين لاقى تعاطفهم وتجاوبهم في كثير من المحن التي ألمت به ، من حسن الطالع أن تكون لمستر دوغلاس هذه السمات الفاضلة في شخصيته ، وأن يتذكر دائماً أولئك الذين لا يزالون مصفدين في الأغلال وكأنه مغلول معهم . ومن حسن الطالع للجموع في مناطق مختلفة من جمهوريتنا ، أولئك الذين أضاء عقولهم بالحديث عن العبودية ، والذين ذابت دموعهم تعاطفاً معه ، وأثار غضبهم ببلاغته في الحديث عن

مستعبدي البشر ! ومن حسن الطالع له ، لأن ذلك وضعه فوراً في ميدان العمل العام ، الذي أعطى العالم « رجلاً أكيداً » ، وأثار الطاقات النائمة في روحه ، وكرسه شخصياً للعمل العظيم في تحطيم طريق المضطهدين ، وشق طريق الحرية للمضطَهدين .

لن أنسى أبداً خطبته الأولى في الاجتماع ، والانفعال غير العادي الذي أثارته في ذهني ، والانطباع القوي الذي خلفته بين المشاهدين المزدحمين الذين أخذتهم المفاجأة تماماً فتوالى تصفيقهم من البداية وحتى النهاية خلال حديثه الموفق .

أعتقد أني لم أكره الرق بكثافة من قبل قط ، مثلما حدث في تلك اللحظة ، وبالتأكيد فإن تصوري عن الفظاعات الضخمة التي تمارسها « العبودية » على ضحاياها من المخلوقات الطيبة ، قد ازداد استنارة عن ذي قبل . . في هذا الاجتماع وقف رجل ذو هيئة طبيعية هائلة ، طويل متسق الجسد ، يقدم في موهبة طبيعية غنية ، خطبة بالغة خارقة ، وفي روح بدت أرق من الملائكة ، رغم أنه عبد ، نعم عبد هارب يرتعش طلباً للأمن ، ولم يزل يجد مشقة في الاعتقاد ، بأنه من الممكن أن يوجد على الأرض الأمريكية ، رجل أبيض يمكن أن يصادقه رغم كل الأخطار ، حباً في الله والانسانية! . رجل ذو معارف مكتسبة عالية في الثقافة والأخلاق ، لا يحتاج شيئاً غير بعض اللمسات البسيطة ، لتجعل منه مفخرة للمجتمع ، وبركة لبني جنسه ، وقد كان هذا الرجل من قبل أمام قوانين هذه الأرض ، والناس ، ومعايير العبودية ، مجرد قطعة من الأملاك ، دابة ، متاعاً شخصياً وليس أكثر !

لقد اقنع أحد الأصدقاء من نيوبدفورد مستر دوغلاس بأن يخطب في الاجتماع ، فتقدم إلى المنصة في يتردد وارتباك ، يشيران إلى عقل حساس وجد نفسه في مكان جديد عليه . . وبعد اعتذاره عن جهله ، وتذكيره للحاضرين أن العبودية كانت مدرسة فقيرة للقلب والعقل البشرين، بدأ يسرد بعض الحقائق من تاريخه الخاص كعبد ، وخلال حديثه ، أظهر عدداً

من الأفكار النبيلة ، والتأملات المؤثرة في النفس . وما كاد يعود إلى مكانه ممتلئاً بالأمل ، محاطاً بالإعجاب ، حتى وقفت وأعلنت أن باتريك هنري ، الثائر المشهور ، لم يقدم في موضوع الحرية ، خطبة أكثر فصاحة من التي استمعنا إليها الآن ، من فم ذلك الهارب المطارد ، بذلك آمنت في ذلك الوقت - وهذا إيماني حتى الآن - وذكرت الحاضرين بالأخطار التي تحيط بهذا الشاب الذي حرر نفسه ، في الشمال الأمريكي ، وحتى في ولاية ماساشوسيتس ، أرض الآباء ، الحجاج الأول ، وبين أخلاف الآباء الثوار . وحمستهم ألا يسمحوا أبدا أن تتم اعادته مرة أخرى إلى أسر العبودية ، سواء كان ذلك عن طريق قانوني أو غير قانوني ، دستوري أو غير دستوري . وكانت الاستجابة بالتأييد ، وفي صوت كالرعد انطلقت كلمة « لا » . قلت « هل تغيثونه وتحمونه كأخ ، ومواطن للولايات القديمة المجيدة » ؟ فصاحوا بطاقة هائلة « نعم » ، ولا بد أن طغاة الجنوب قساة القلب ، على خط ماسون وديكسون(*) ، قد سمعوا هذا الانفجار المقدس للمشاعر ، وتعرفوا عليه كعهد وقسم لا يتزعزع من جانب أصحابه ، على ألا يخونوه أو يضلوه عن طريقه ، ولكن يحمونه ، ويواجهون العواقب بشجاعة . .

لقد فكرت عميقاً في الحال لو استطاع مستر دوغلاس أن يكرس وقته ومواهبه في النشاط المضاد للعبودية . ذلك لا بد يُحدث تطوراً به ، ويكون ضربة قاصمة في نفس الوقت لميل الشماليين المضاد للون البشرة . لذلك حمسته ، وغرست في نفسه الأمل والشجاعة ، ليلتحق بهذا العمل الذي يناسب شخصاً مثله . وتابعني في هذا الجهد أصدقاء ذوو قلوب طيبة ، وخاصة الوكيل العام الأخير لجمعية ماساشوسيتس لمناهضة العبودية ، مستر جون . أ . كولينز ، الذي كان رأيه متفقاً تماماً معي ، وإن لم يتشجع في البداية ، بل بدا مشفقاً على مستر دوجلاس من هذا العمل الكبير ، إلا أنه وافق في النهاية ، وأصبح مستر دوغلاس يحاضر ويخطب تحت رعاية جمعية

(*) الخط الفاصل بين الشمال والجنوب في الولايات المتحدة الامريكية .

مناهضة العبودية ، وكان مجتهداً في أعماله ، وناجحاً في تغيير الإتجاه المضاد للملونين ، واكتساب المريدين ، واثارة عقول الجماهير ، مما فاق أكثر التوقعات حماسة له . لقد كان يتصرف برقة وحلم مع رجولة صادقة ، وكخطيب تميز بتدفق مشاعره ، فطنته ، قدرته على المقارنة والمحاكاة ، قوة عقله ، وتدفق لغته ، وتجسم فيه اتحاد العقل والقلب اللازم لتنوير العقول ، واكتساب قلوب الآخرين . وكانت قوته مساوية لحياته ، وأنه لمستمر في طريق الفضيلة الصاعد ، ومعرفة الله بازدياد ، خدمة لقضية الإنسانية الجريدة ، سواء في الوطن أو خارجه . . .

لقد كانت حقيقة جديرة بالتوقف أمامها حقاً ، أن يقف أمام الجمهور عبد هارب ، ليكون من أهم أنصار العبيد كفاءة ، وأعني بذلك شخص فريدريك دوغلاس ، في الوقت الذي يمثل فيه الملونين الأحرار ، تشارلس لينوكس رايموند ، والاثنان حازت فصاحتهما أعلى مديح من الحشود على جانبي الاطلنطي . دع اذن المتقولين على الجنس الملون ، يحتقرون أنفسهم على وضاعتهم ، وتعصب أرواحهم . ومن الآن فصاعداً توقف عن الكلام عن النقص الطبيعي عند أولئك الذين لم ينقصهم شيء غير الوقت والفرصة ، لبلوغ أعلى نقطة من الامتياز الانساني .

ربما يكون سؤالاً حقيقياً ما إذا كان يوجد على هذه الأرض، من قاسى الحرمان وعانى رعب العبودية ، دون أن يصبح أكثر انحطاطاً في مستوى الانسانية ، مثل العبيد أبناء أفريقيا . هؤلاء الذين لم يوجد عمل لمحو ثقافتهم إلا وتم انجازه ، وكذلك لإظلام عقولهم ، وتحطيم طبيعتهم الأخلاقية ، ومحو كل أثر لعلاقة بينهم وبين الجنس البشري ، ورغم ذلك فأي روعة في أنهم تحملوا ذلك كله . . إننا كي نتمثل ذلك وكي نعرف أثر العبودية على الإنسان الأبيض ، وكيف أنه ليست لديه القوة في تحمل مثل هذه الظروف ، وليس بمتفوقاً على اخوانه السود ، كي نعرف ذلك ، نستمع إلى هذه القصة التي رواها دانييل أو كونيل المدافع المتميز عن الحرية العالمية ، والبطل شديد البأس لايرلندا المستعمرة والتي لا تقهر ، لقد روى

هذه القصة في إحدى خطبه في قاعة « الصلح » في دبلن في ٣١ مارس عام ١٨٤٥ قال :

« ليس مهماً تحت أي اصطلاح مزيف تتستر العبودية ، فإنها لا تزال بشعة ، وبها ميل طبيعي حتى للعصف بكل ملكة نبيلة عند الإنسان . إن بحاراً أمريكياً نُسي على شواطىء أفريقيا ، حيث عاش عبداً لثلاثة أعوام هناك ، ووجد عند نهاية هذه الفترة ، وقد تحول إلى وحش وبهيمة . لقد فقد كل قوة للإدراك ، ونسي لغته الوطنية ، وكان ينطق فقط ببعض الرطانة التي لا يفهمها أحد إذ هي خليط من الحروف العربية والإنجليزية ، وكان هو نفسه غير قادر أن يدركها . إن هذه القصة مثل غير عادي على التدهور العقلي . إنها تثبت بجلاء أو على الأقل ، أن العبد الأبيض يمكن أن ينحدر في مستوى الانسانية مثل العبد الأسود » .

لقد اختار مستر دوغلاس أن يكتب سيرته على أكمل وجه ، وبأسلوبه هو ، ووفقاً لأحسن قدراته ، بدلاً من أن يستخدم شخصاً آخر ، لذلك فهي انتاجه الخاص . وباعتبار طول وظلام حياته كعبد ، وقلة فرصته بعد تحطيم قيوده في تحسين مستواه الذهني ، فإن هذا العمل يعد في تقديري مفخرة لعقله وقلبه . من الذي يستطيع أن يطالع هذه السيرة دون عين دامعة ، وصدر حزين ، وروح معذبة . دون أن يمتلىء بالمقت للعبودية ، وكل أشرارها ، ويمتلىء بالتصميم على البحث عن مخرج فوري لذلك النظام الشنيع ، ويصاب بالرعب على مصير هذا البلد ، في يدي الله الحق ، الذي هو دائماً في جانب المضطَهدين ، والذي لا يغفل عن انقاذهم . إن الذي يقرأها دون ذلك لذو قلب صلد قد من حجر ، يناسبه أن يكون تاجراً للعبيد وأرواح البشر . انها سيرة تخلو من كل حقد أو مبالغة ، ولا شيء فيها من نسج الخيال ، بل هي بنت الواقع مباشرة، ولا تزيد في أي واقعة فيها بالنظر إلى العبودية ذاتها . إن خبرة فريدريك دوغلاس كعبد لم تكن شيئاً فريداً ، وقدره لم يكن أصعبها ، ويمكن اعتبار حالته عينة واضحة على معاملة العبيد في ميريلاند ، الولاية التي عرفت بأن فيها يجد العبيد طعاماً كافياً ،

وقسوة أقل مما هو في جورجيا ، وألاباما ، ولويزيانا الكثيرون عانـوا أكثر منه مما لا يمكن المقارنة معه بينما قليلون جداً من عانـوا أقل منـه . إذن أي وضع تعس كان وضعه ، أي عقوبات مرعبة جرت عليه ! . أي انتهاكات صارمة وقعت على روحه ، وهو بكل قواه النبيلة ، والهاماته السامية ، كيف عومل كذابة حتى من قبل أولئك الذين احترفوا الإدعاء بأن لديهم روحاً مثل الـذي كان للسيـد المسيح ! كيف أجبـر على مـا هو مـرعب ! كيف كانت حاجته لمشـاورة الأصدقاء ومساعدتهم في غمرة البلاء ، كيف كـان ثقيلاً ليـل الحزن الـذي أغـرق في الـظلام آخر اشعة الأمـل ، ومـلأ المستقبـل بالرعب ! . أي أشواق للحرية جاشت في صدره ، وكيف كان بؤسه يزداد مطرداً مع نمو ذكائه وتأملاته . وهكذا موضحـاً كيف أن العبد السعيـد هو إنسان خامد العقل ، نرى كيف فكر ، وتعقل ، وأحس تحت سوط المراقب والسلاسل تقيد أطرافه . أي أخطار واجهها في هروبه وفي بحثه عن طريق للهروب من المستنقع المرعب ! . وكيف سطع في ذهنه خلاصه ، وهو عبد وسط أمة من الأعداء الغلاظ .

إن هـذه السيرة تحتـوي على كثـير من الوقـائـع المؤثـرة ، وكثير من الصفحات البليغة والقوية ، لكني أعتقد أن أكثرها تحريكاً للنفس هو وصف دوجلاس لمشاعره وهو يحدث نفسه عن مصيره ، وفرصته أن يكون حراً يوماً مـا ، بينما كـان يقف على ضفـاف خليج تشيـزابيك ، متـطلعاً إلى السفن الراحلة ذات الأشرعـة البيض ، وتمثله لها وكـأنما حلت فيهـا الروح الحيـة للحرية . من الذي يستطيع أن يقرأ تلك الصفحة دون أن تثور مشاعره ؟ لقد ضغط فيها كـل فكر ومشـاعر وعـواطف الأدب السكندري ، كـل ما يمكن ، وما يحتاج المناقشة ، في شكـل عتاب ، وتـوسل ، وتـأنيب ، ضد جريمة الجرائم تلك ، أن يكون الانسان ملكاً لأخيه الانسان ! .

أوه . . أي ملعون ذلك النظام الذي يدفن عقل الانسان الجميل، ويشوه الخيال الالهي ، ويُنزل أولئك الذين كانوا بالتأكيد مكللين بالمجـد والشـرف ، إلى مستوى البهـائم ذات الأربع ، ويمجـد المتاجـرين بـاللحم

الإنساني ويرفعهم فـوق الالهة ! . . . لماذا يطول بقـاء ذلك النـظام ساعـة واحدة ؟ أليس شراً ، وشراً تماماً ، هذا البقاء ؟ . . ماذا يؤكد وجوده غـير غياب الله ، وكل اعتبـار للانسـان ، بين سكـان الولايـات المتحدة ؟ . . . فلتسرع السماء بهزيمته الأبدية ! .

إن كثيـراً من الناس الـذين يجهلون تماماً طبيعة العبـودية ، سـوف يشكون بقوة حين يقرأون أو يستمعون ، لأية حكايـة عن الفظاعـات التي تقع على ضحاياها كل يوم . . انهم لا ينكرون أن العبيد يعتبرون متاعاً ، ولكن هـذه الحقيقـة المـرعبـة لا تثـير في عقـولهم أي فكـرة عن الـظلم أو الاضطهاد أو البربرية الوحشية . أخبرهم عن الاضطهادات ، والتجديع ، ووصم العبيـد بالأختـام ، ومشاهـد النجاسـة والدم ، ومحـو كل ضـوء أو معرفة ، ولسوف يغضبون بشدة من هذه المبـالغات الكبـرى ، ومثل هـذه الأخطاء بالجملة ، وهذا الهجاء الشنيـع لمزارعي الجنـوب !، كما لـو كانت هذه الانتهاكات الذميمة ليست نتائج طبيعية لنظام العبودية ! . وكما لو كان أقـل قسوة أن تُنـزل الكائن البشـري الى مستوى الأشيـاء ، مما لـو جلدته بشـدة ، أو جوَّعته وعرِّيتـه ! . أو كما لـو كان الجلد والسـلاسل ، وخـرم الأصابع ، والهراوات ، والكلاب الدمويـة ، والمراقبـون ، والملاحـظون ، والعسس ، لا غنى عنهم جميعاً لجعـل العبـد شيئاً منحـطاً ، ولحمـايـة مضطهدي العبيد الغلاظ ! . أو كما لو كان إفناء الأسر ، واتخاذ السّريات ، والزنا ، وزنا المحارم لن يكون موجوداً ومتوفـراً ، حين تنتفى كـل الحقوق الانسانية ، وأي حاجز يحمي الضحيـة من غضب المفسد . فحـين تتسلط القـوة المطلقة عـلى الحياة والحـرية ، لن تكـون السلطة مـدمـرة ! . . . إن الشكوك من هذا النوع متوفرة في المجتمع ، وهي نتيجة للحاجة إلى التأمل والتفكير ، لكنها بشكـل عام تشـير إلى كراهيـة النور ، والـرغبة في تغـطية العبودية من التهم الدالة على بشاعتها ، واحتقار الجنس الملون سـواء كان عبـداً أو حراً . هؤلاء سيحـاولون إنكار الحكايـات المفـزعـة عن بشـاعـة العبودية ، والمسجلة في هذه السيرة الصادقة ،لكن عملهم سيذهب عبثاً.

لقد ذكر مستر دوغلاس بوضوح مكان مولده ، وأسماء الذين اشتروا روحه وجسده ، وأسماء الذين ارتكبوا الجرائم التي عاناها ، لذلك فإن من السهل تفنيد ما يقول لوكان كاذباً .

في حديث مستر دوغلاس ، ربط بين مثالين للقسوة القاتلة . في واحد منها أطلق مزارع النار بعناد على عبد يمتلكه صاحب المزرعة المجاورة . وكان خطأ العبد أنه توغل دون قصد في حدود الأول خلال صيده للمحار . وفي المثال الثاني فجر مراقب رأس عبد بالرصاص ، وكان العبد قد قفز إلى جدول ماء قريب ، هرباً من المراقب الذي كان يجلده .

لقد قرر مستر دوغلاس أنه في الحالتين لم يتم اتخاذ أي إجراء قانوني للقبض على القاتل أو محاكمته . ولقد جاء في صحيفة « البالتيمور أمريكان » في ١٧ مارس عام ١٩٤٥ ما يشبه هذين المثالين في الفظاعة تحت العنوان التالي : « اطلاق الرصاص على عبد » والتفاصيل تحت العنوان تقول ، لقد علمنا بناء على خطاب من مقاطعة تشارلس بولاية ميرلاند ، وصل إلى أحد رجال هذه المدينة المحترمين ، أن شاباً يدعى ماثيو وهو ابن عم الجنرال ماثيو ، ويعتقد أن أباه يعمل في واشنطن ، قتل واحداً من العبيد في مزرعة أبيه باطلاق الرصاص عليه . وأوضح الخطاب أن ماثيو الشاب كان قد غادر المزرعة بعد أن أعطى أمراً لأحد خدمه ، لكن الخادم لم يطعه فاتجه إلى البيت وأخذ بندقيته ، وعاد وأطلق الرصاص على الخادم ، وبسرعة ـ يستمر الخطاب ـ فرّ ماثيو إلى أبيه حيث لا يزال آمناً » .

لا يجب أن ننسى أبداً أنه لا مالك عبد ، ولا مراقب ، يمكن أن يُدان على أي جريمة يرتكبها بحق العبد . أي درجة من الشيطانية هذه التي تجعل أيضاً شهادة الشهود الملونين ـ أحراراً كانوا أم عبيداً ـ غير كافية وفقاً لنظام العبودية ، لإدانة رجل أبيض . العبيد جزء من البهائم ، ولذلك لا توجد حماية قانونية على أي شكل لهم وأية جرائم ترتكب في حقهم لا تقع تحت طائلة القانون . هل من السهل على العقل البشري أن يتصور حالة أكبر فزعاً للمجتمع من هذه ؟ .

إن أثر احتراف الدين على سلوك الأسياد في الجنوب موصوف بحيوية في هذه السيرة ، ويبرز بجلاء أنه يمكن أن يكون غير نافع ، وهو في جوهره بالنسبة لهذه الحالة أعلى درجات الافساد . إن شهادة مستر دوجلاس في هذه النقطة يؤيدها عديد من المشاهدين الذين لا يُشك في صدقهم . « احتراف ملاك العبيد للمسيحية هو دجل واضح ، وفُجر من أعلى درجة ، فهم سارقو بشر ، وليس من الأهمية لهم ماذا تضع في الجانب الآخر من الميزان » ! .

أيها القارىء ! هل أنت مع سارقي البشر في العاطفة والغرض ، أم في جانب ضحاياهم المداسين بالأقدام؟ . إذا كنت مع الأولين، إذن فهل أنت عدو لله والانسان ؟ . وإذا كنت مع الآخرين فما الذي تقدر عليه وتجتهد فيه لتفعله لهم ؟ . كن صادقاً . كن يقظاً ، كن مثابراً في جهودك لتحطيم كل نير وتحرير كل مضطهد . . ومهما كانت العاقبة ، ومهما كلفتك ، فزين رايتك التي ستنشرها في الفضاء بالشعار الديني والسياسي « لا مساومة مع العبودية ، لا اتحاد مع ملاك العبيد » ، ، ،

ويليام اللويد جاريسون

بوسطن في أيار (مايو) ١٨٤٥.

الفصل الأول

ولدت في « توكاهوي » القريبة من « هيلسبورو » ، والتي تقع على بعد اثني عشر ميلاً من « ايستون » ، في مقاطعة « تالبوت » بولاية ميريلاند . لم يكن لدي أية معرفة دقيقة عن عمري ، ولم أر أبداً أي سجل حقيقي له ، فالقسم الأكبر من العبيد يعرّفون عن أعمارهم كما تعرف الخيول عن أعمارها . هذه رغبة معظم الأسياد الذين ، كما رأيت ، يريدون الاحتفاظ بعبيدهم جهالاً .

لا أتذكر أني قابلت عبداً يستطيع أن يخبرني بيوم مولده ، بل نادراً ما يقتربون منه فيقولون موسم الزرع أو موسم الحصاد ، أو موسم الكرز ، أو الربيع ، أو موسم المطر . وكانت رغبتي في معرفة تاريخ مولدي مصدر تعاسة لي حتى في طفولتي ، فالأطفال البيض يعرفون تاريخ ميلادهم ، ولم أستطع أن أفسر لماذا انتزعت مني هذه الميزة . لم يكن مسموحاً لي بأي سؤال لسيدي عن هذا الموضوع ، فهو يعتبر مثل هذه الأسئلة جانباً من فساد العبد ووقاحته ، ودليلاً على الروح الشريرة .

إن أقرب تقدير أستطيعه ، يجعلني الآن بين السابعة والعشرين والثامنة والعشرين من عمري . ولقد توصلت لذلك من سماعي سيدي وهو يقول ذات مرة عام ١٨٣٥ ، أنني في حوالى السابعة عشرة .

كانت أمي تسمى « هارييت بايلي » ، وهي ابنة لاسحق وبيتس بايلي اللذين كانا أسودين . وكانت أمي أكثر سواداً من جدي وجدتي . .

كان أبي رجلاً أبيض ، وهـذا يؤكده كـل ما سمعت عن مـولدي . كانت هناك أيضاً فكرة منتشرة تقول إن سيدي هو أبي ، لكنني لم أعرف شيئاً يثبت صحة هذا وكـانت تنقصني وسائـل المعرفـة . في طفولتي فُصلت عن أمي ، قبل أن أعرفهـا كأم لي . إنها عـادة شائعـة في ولاية ميـريلانـد التي هربت منها ، أن يُفصل الأطفال عن أمهاتهم في عمر مبكر جداً . فغالباً قبل أن يصل الطفل إلى عامه الأول ، تنتزع منه أمه ، وتنتقل مباعة إلى مزرعة أخرى بعيدة مسافة كبيرة ، بينما يوضع الطفل تحت رعاية امرأة عجوز غير قادرة على أعمال الحقل .

لماذا يتم هذا الفصل بين الطفل وأمه ؟ . . لا أعرف سوى ان يهدف الى قمع نمو عواطف الطفل تجاه أمه ، ومسح وتدمير العاطفة الطبيعية للأم نحو الطفل كنتيجة حتمية لذلك .

لم أرَ أمي قط ، ولم أعرفها أكثر من أربع أو خمس مرات في حياتي . في كل مرة كان الوقت قصيراً ، وكان ليلاً . لقد استـأجرهـا مستر ستيـوارت الذي يعيش على بعد اثني عشـر ميلاً من موطني . وكـانت تجعل رحـلاتها لرؤيتي ليلاً ، فتسافر كل هذه المسافة على قدميها بعد أداء عملها اليومي . كانت تعمل في الحقل بيديها ، وكان الجلد بالسوط هو العقاب إذا أشرقت الشمس ولم تكن في الحقل . مثل هذا كان يستوجب « تصريحـاً » من سيد العبد أو سيدته ، وهذا شيء يندر الحصول عليه ، اما الذي يعطيه يتباهـى بأنه سيد طيب .

لا أتـذكر أبـداً أني رأيت أمي في ضوء النهـار . كانت تبقى معي في الليل ، تنام إلى جواري ، تنيمني ، ولكن قبل أن استيقظ بكثير كانت ترحل . لقد تمت لقاءات قليلة بيننا ، ثم سرعان ما أنهى الموت هذا القليل الذي حصلنا عليه في حياتها ، وأنهى معه معاناتها وآلامها .

لقد ماتت وأنا في حوالى السابعة من عمري ، في احدى مزارع سيدي بالقرب من « طاحونة لي » ولم يُسمح لي بالتواجد أثناء مرضها ، ولا في موتها ، ولا في دفنها . وهكذا رحلت قبل أن أعرف أي شيء عنها بوقت طويل . لم استمتع أبداً ، ولا إلى أي حد معقول ، بحضورها الهادىء اللطيف ، أو رقتها ، وعنايتها . وتلقيت نبأ موتها بنفس المشاعر التي ربما أشعر بها حين يموت غريب . . .

بحدوث ذلك هكذا فجأة ، تركتني دون أدنى معرفة بحقيقة أبي . إن الهمس بأن سيدي هو أبي ، ربما كان صادقاً أو كاذباً ، صحيحاً أو مزيفاً ، وهو أمر لا يقدم أو يؤخر ، بينما تظل الحقيقة بكل بغضها الساطع ، أن مالكي العبيد قد قضوا وأقروا بالقانون القائل أن أبناء « الأَمَة » سيتبعون في كل الأحوال حال أمهاتهم . لقد قضوا بهذا لأنه يناسب رغباتهم ، ويجعل اشباع شهواتهم الفاجرة مفيداً بقدر ما هو ممتع ، لأنه بهذا التنظيم المخادع ، فإن مالك العبد ، يمثل بالنسبة للعبد ، في حالات ليست قليلة ، العلاقة المزدوجة للسيد والأب . . إنني أعرف مثل هذه الحالات . وجدير بالملاحظة ، أن مثل أولئك العبيد ، يعانون بشكل مستمر صعوبات أكبر ، ولديهم الكثير ليصارعوه أكثر مما لدى الآخرين . إنهم في المقام الأول محل إيذاء دائم من سيدتهم ، فهي دائمة التفتيش عن اخطائهم . . وهم لا يستطيعون عمل أي شيء يسرها . . وهي لا تُسر أبداً إلا إذا رأتهم مقيدين ، خاصة وإنها تشك في زوجها بسبب ما تراه من الأطفال الخلاسيين الذين يميزهم عن عبيده السود . كثيراً ما يُجبر السيد مراراً على بيع هذه المجموعة من عبيده مراعاة لمشاعر زوجته البيضاء ، ويكون الأمر قاسياً كصدمة الموت للرجل أن يبيع أطفاله لآكلي لحوم البشر . . ولكن غالباً ما تملي عليه الإنسانية ذلك ، وإلا فعليه ، إن لم يفعل ، أن لا يجلدهم بنفسه ، بل يقف بعيداً ويرى إبناً أبيض يقيد أخاه ، الذي اكثر سمرة منه ، ويُجري السوط الدموي على ظهره العاري ، وإذا ما نبس بكلمة واحدة تدل على عدم رضاه فإنها ، تُعزى إلى تحيزه الأبوي ، ويزيد الأمور سوءاً بالنسبة

لنفسه ، وللعبد الذي أراد حمايته أو الدفاع عنه .

كل عام يمر كان يأتي معه باعداد من هذه الطبقة من العبيد ، ولم يكن هناك شك فيما سينجم بعد معرفة هذه الحقيقة ، ذلك أن أحد رجال الدولة الكبار في الجنوب ، تنبأ بسقوط دولة العبودية من جراء القوانين الحتمية للنمو البشري. وسواء تحققت هذه النبوءة أم لا، فمن الواضح أن هناك طبقة ذات شكل مختلف من الناس تزدهر في الجنوب ، وهي الآن ترسف في العبودية ، مثل أولئك الذين أحضروا أصلاً إلى هذه البلاد من أفريقيا ، وزيادة هذه الطبقة لن تكون طيبة ، بل ستمحو قوة المثل القائل بأن « الله قد لعن حام ومن ثم فإن العبودية الأمريكية صحيحة » . ذلك أنه إذا كان أخلاف حام هم وحدهم المُستعَبدين وفقاً للكتاب المقدس ، فإنه من المؤكد أن العبودية في الجنوب يجب أن تصبح حالاً غير مقدسة ، لأن آلافاً يُدفعون سنوياً الى العالم وهم ، مثلي ، مدينون بوجودهم إلى أباء بيض . أولئك الآباء الذين غالباً ما يكونون أسيادهم . . .

كان لي سيدان . اسم سيدي الأول « أنطوني » وكان يلقب « بالكابتن أنطوني » وهو لقب أخمن أنه اكتسبه لقيادته مركباً في خليج « تشيزابيك » . وهو لم يكن معدوداً كمالك عبيد غني . كان يمتلك مزرعتين أو ثلاثاً ، وحوالى ثلاثين عبداً . . .

كانت المزارع والعبيد تحت إشراف مراقب يدعى بلامر . وكان مستر بلامر سكيراً بائساً ، فاحشاً مبتذلاً ، ووحشاً متوحشاً ! ، يظهر بشكل دائم مسلحاً بسوط من جلد البقر وهراوة ثقيلة . لقد عرفته يجلد رؤوس النساء بقسوة مما يدفع السيد للغضب منه وتهديده بالجلد إذا لم يثب إلى رشده . وهذا لا يعني على أي حال أن السيد كان مالك عبيد إنسانياً ، بل كان الأمر يتطلب بربرية فوق العادة من جانب المراقب حتى يؤثر ذلك فيه . لقد كان سيدي رجلاً قاسياً ، وازدادت قسوته بفضل حياته الطويلة كمالك للعبيد . كثيراً ما يبدو مستمتعاً للغاية بجلدهم . وحتى الآن غالباً ما استيقظ عند الفجر بسبب اضطراب قلبي من جراء ما فعله بخالتي التي اعتاد أن يربطها

إلى عارضة في السقف ويجلدها على ظهرها حتى يغطيها الدم . لم تكن هناك كلمات ، ولا دموع ، ولا صلوات من ضحيته الدامية ، تحرك قلبه الحديدي . تصرخ خالتي ألماً فيجلد بقسوة ، وحيث يجري الدم متفصداً أسرع يجلد طويلاً . . وحين يهده التعب يتوقف وينفض الدم اللزج عن السوط العريض .

أتذكر أول مرة شاهدت فيها هذا العرض المفزع . كنت طفلاً صغيراً ، لكني ما زلت أذكره ، ولن أنسى أبداً ذلك طالما بقيت لدي القدرة على أن أتذكر أي شيء .

لقد كان ذلك أول ما رأيت من سلسلة العنف الطويلة ، التي كنت مجبراً على أن أشاهدها وأشارك فيها . لقد صدمني المشهد بقوة . كان الباب إلى الدم المنسكب ، إلى جحيم العبودية ، الذي من خلاله كنت على وشك العبور . كان أفظع مشهد يمكن أن يُرى وأتمنى لو أستطيع أن أنقل على الورق المشاعر التي بها استقبلت ما جرى . لقد حدث هذا بسرعة بعد وصولي للعيش مع سيدي القديم وتحت الظروف التالية . . .

خرجت الخالة « هيستر » ذات ليلة ـ لسبب لا أعرفه ـ وحدث أن كانت غائبة حين طلب سيدي أن يراها . لقد سبق وأمرها ألا تخرج ليلاً ، وحذرها من إمساكه بها في صحبة شاب كان يهتم بها ، وكان مملوكاً للكولونيل اللويد. كان اسم الشاب «نيد روبرتس» ويطلقون عليه « نيد اللويد » . لماذا كان سيدي شديد العناية بها هكذا ؟ هذا شيء يترك للتخمين . لقد كانت امرأة ذات مظهر نبيل ، وتناسب بديع ، قلَّ مثلها أو أفضل منها في مظهرها بين النساء الملونات والبيض في منطقتنا . لم تعص الخالة هيستر فقط أوامر سيدي وتخرج أثناء الليل ، بل وُجدت أيضاً بصحبة « نيد اللويد » . الذي قال أثناء جلد خالتي أنه المذنب الرئيسي ، ولا بد أنه كان نقي الأخلاق ليدافع عن براءة خالتي . إن الذين عرفوه لم يشكوا قط في فضائله .

قبل أن يبدأ سيدي بجلد الخالة هيستر أخذها إلى المطبخ ومزق ثيابها من عنقها حتى وسطها تاركاً عنقها وكتفيها وظهرها عارية تماماً . ثم طلب منها أن تجعل يديها كالصليب . بعد ذلك ربط يديها بحبل قوي وأخذها إلى مقعد بلا ظهر تحت خطاف كبير متدل من عارضة في السقف وضع أصلاً لهذا الغرض ، وجعلها تقف فوق الكرسي ثم قيد يديها في الخطاف . أصبحت الآن واقفة معرضة لهدفه الشيطاني ولقد رُفعت ذراعاها إلى أقصى طاقة لهما حتى أنها وقفت على أطراف أصابع قدميها . حينئذ قال لها . . .

« الآن سوف أعلمك كيف تعصين أوامري » ! وبعد أن طوى كميه بدأ في فرد السوط العريض المصنوع من جلد البقر وحالاً تقاطر الدم الساخن الأحمر الى الأرض وسط صرخات تتردد من القلب منها ، ولعنات مروعة منه .

كنت مأخوذاً ومصدوماً بالرعب من المشهد حتى أني خبأت نفسي في غرفة ولم أستطع الخروج لفترة طويلة بعد انتهاء هذا الأداء الدموي ، فلقد توقعت أن يكون دوري بعدها . وكان ذلك كله جديداً عليّ ، ولم يحدث أن رأيت مثله من قبل قط ، فلقد عشت دائماً مع جدتي في أطراف المزرعة ، حيث كانت تعتني بأطفال النساء الأصغر منها ، لذلك كنت بعيداً عن المشاهد الدموية التي تجري دائماً في المزرعة .

الفصل الثاني

كانت أسرة سيدي تتكون من ولدين هما أندرو ، وريتشارد . وبنت هي لوكريشيا المتزوجة من الكابتن توماس أولد . وكانوا يعيشون جميعاً في منزل واحد في ضيعة الكولونيل إدوارد اللويد .

كان سيدي هو كاتب الكولونيل أللويد وناظر أعماله ، أو ما يمكن تسميته بمراقب المراقبين . . ولقد أمضيت عامين من طفولتي في هذه الضيعة بين عائلة سيدي القديم ، وهنا شاهدت الأداء الدموي الذي أشرت إليه في الفصل السابق . ولأنني استقبلت انطباعاتي الأولى عن العبودية في هذه الضيعة ، فسأعطي بعض الوصف لها ، وللعبودية كما وجدت هناك .

تقع الضيعة على بعد حوالى اثني عشر ميلاً شمال ايستون في مقاطعة تالبوت وعلى حدود نهر المايلز . كانت المحاصيل الرئيسية فيها هي الدخان ، والذرة والقمح ، وتزرع بكميات هائلة . وبهذه المنتجات ، ومنتجات المزارع الأخرى ، كان الكولونيل قادراً على الاحتفاظ بسفينة نهرية كبيرة في حالة عمل دائم من اجل نقل المحاصيل الى السوق في بالتيمور .

كانت السفينة تحمل اسم « سالي اللويد » تشريفاً لها باسم احدى بنات الكولونيل ،وكان كابتن أولد ، زوج ابنة سيدي ، هو قائد السفينة التي يديرها بيتر ، واسحق ، وريتش ، وجاك .

هؤلاء الأربعة من عبيد الكولونيل كانوا في مكانة أرفع من بقية العبيد ، وهم مميزون في الضيعة ، لأنه لم يكن عملاً صغيراً ، في عيون العبيد ، أن يُسمح لهم برؤية « بالتيمور » .

لقد احتفظ الكولونيل اللويد بعدد يتراوح ما بين ثلاثمئة واربعمئة من العبيد في ضيعته ، وامتلك عدداً أكبر في المزارع المجاورة المملوكة له أيضاً ، وكانت المزارع القريبة إلى ضيعته تحمل أسماء « واي تاون » و« نيو ديزاين » . أشرف على « واي تاون » رجل يدعى « نواه ويليس » ، بينما كانت « نيوديزاين » تحت إشراف مستر « تاونسيند » .

كان المشرفون على هاتين المزرعتين ، وكل المزارع الباقية ، الذين يزيد عددهم على عشرين ، يتلقون الإرشادات والتوجيهات من مديري الضيعة ، إذ أن الضيعة كانت بمثابة مركز العمل الكبير ، مركز حكومي للمزارع العشرين الأخرى .

كل النزاعات بين المشرفين أو المراقبين كانت تحل هنا . وإذا ما أدين عبد على أية مخالفة كبرى للقانون ، مثل التمرد على القيادة ، أو الهرب ، يؤتى به بسرعة إلى هنا فيجلد بلا شفقة ، ثم يوضع على ظهر السفينة الى بالتيمور حيث يباع الى « أوستن وولفولك » ، أو أي تاجر عبيد آخر ، كتحذير لبقية العبيد .

هنا أيضاً يتسلم عبيد المزارع الأخرى حصصهم الشهرية من الطعام وكسوتهم السنوية ، وكانت حصة العبد أو الأمة ثمانية أرطال من لحم الخنزير، أو ما يعادلها من السمك كل شهر، «وبُشل»(*) من الذرة. أما الحصة السنوية من الثياب فكانت تتكون من قميصين من الكتان الخشن ، وسروال من الكتان في لون القميص، وسترة، وسروال للشتاء مصنوع أيضاً من قماش العبيد الخشن ، وجورب ، وحذاء ، وكلها لا تكلف أكثر

(*) البُشل مكيال للحبوب يساوي ثلاثة أرطال ونصف وزناً .

من سبعة دولارات . وكانت حصة أطفال العبيد تقدم إلى امهاتهم ، أو للعجوز التي تقوم على تربيتهم ، ولم يكن الأطفال الصغار غير القادرين على العمل في الحقول ينالون أي شيء من الأحذية أو الجوارب أو السترات أو السراويل . فقط يُعطى لكل طفل قميصين من الكتاب الخشن كل عام ، وحين تتمزق هذه ، يمضون بقية العام عراة حتى يحين موعد تسلم حصة العام التالي . وهكذا كان الأطفال من السابعة حتى العاشرة من العمر ، ومن كلا الجنسين عراة تقريباً في كل فصول السنة .

لم تكن هناك أسرَّة لينام فوقها العبيد . فقط بطانية من الكتان الخشن تقوم مقام السرير ، وهذه لا يملكها غير الرجال والنساء . ولكن لم يكن هذا ، على أي حال ، بؤساً عظيماً ، فمتاعب عدم وجود أسرّة أقل من المتاعب الناشئة عن عدم وجود وقت كاف للنوم . ذلك أنه حين ينتهي العبيد من عملهم في الحقل ، يكون على معظمهم الاستحمام ، وترتيب حاجاتهم ، والطهو . ولم يكن إنجاز أي من ذلك شيئاً سهلاً ، فكانت ساعات كثيرة من ساعات النوم العادية تضيع في الاستعداد للعمل في الحقل في اليوم التالي . وحين ينتهي ذلك كله ، فإن الذكور والاناث من الشباب والكبار ، متزوجين وعزاباً ، يسقطون منطرحين إلى جانب بعضهم البعض على سرير واحد ـ هو الأرض الباردة الرطبة ـ وكل يغطي نفسه ببطانيته البائسة ، وينامون حتى يسمعوا بوق المراقب يستدعيهم للعمل في الحقل . عند سماع البوق لا يجب أن يكون هنالك أي تأخير ، والواجب أن يكون كل واحد في موقعه ، والويل لأولئك الذين لا يسمعون هذا النداء الصباحي . هؤلاء إن لم ينهضوا على حاسة السمع ، سينهضون على حاسة اللمس ، دون رحمة أو تقدير للعمر أو الجنس، للعجوز أو للمرأة .

لقد اعتاد مستر سيفر ، المراقب ، أن يقف عند الباب مسلحا بهراوة كبيرة من فروع شجر الجوز الأمريكي ، وبسوط من جلد البقر الثقيل ، مستعداً لجلد أي شخص أتعسه الحظ فلم يسمع البوق ، أو تأخر ، لأي سبب آخر ، في الخروج إلى الحقل .

كان اسم مستر سيفر صادقاً مع أفعاله ـ سيفر بالانجليزية تعني حاداً ـ فقد كان رجلاً قاسياً . رأيته يجلد امرأة جاعلاً الدم ينزف منها لنصف ساعة ويحدث هذا وسط صرخات أطفالها ، النازفين من أجل خلاص أمهم . كان يبدو كأنه يتلذذ بتحقيق همجيته الشيطانية . وبالإضافة إلى قسوته فقد كان فاحشاً مبتذلاً يكفي الرجل العادي أن يسمع صوته ليتجمد فيه الدم ويقف شعر رأسه . نادراً ما تلفظ مستر سيفر بجملة دون أن تبدأ أو تنتهي بلعنات مروعة . وكان الحقل هو معرض قسوته ، وكان حضوره يجعله حقلاً للدم والكفر . . منذ الشروق حتى الغروب يظل يلعن ، ويمتهن ، ويجرح ، ويجلد العبيد بأكثر الطرق اثارة للرعب . لكن كان عمله قصيراً ، فقد مات بسرعة بعد انتقالي إلى الكولونيل أللويد . ومات كما عاش ، صارخاً بزفرات الموت ، واللعنات الحادة ، والشتائم المرعبة . لقد نظر العبيد إلى موته كأثر من آثار العناية الإلهية .

شغل مستر هوبكينز مكان مستر سيفر . كان رجلاً مختلفاً تماماً . أقل قسوة ، أقل ابتذالاً ، أقل ضجة من سلفه . تميز عمله بعدم وجود مظاهر غير عادية للقسوة . كان يجلد ، ولكن يبدو غير مستمتع بالجلد ، وأطلق عليه العبيد اسم المراقب الطيب . .

كان لضيعة الكولونيل أللويد مظهر قرية ريفية . فكل الأشغال الميكانيكية لبقية المزارع تتم هنا . صناعة الأحذية ، الأثاث ، الحدادة ، عربات النقل ، النحاس، النسيج ، طحن الغلال . كلها يقوم بها العبيد في الضيعة . . . وكان المكان يكتسي ثوب العمل حيث لا تشبهه في ذلك اية مزرعة مجاورة . عدد المنازل أيضاً كان مخططاً كي يعطيها ميزة على المزارع المجاورة . لقد أسماها العبيد « ضيعة المنزل الكبير » . وكان اختيار عبيد المزارع الأخرى لمأمورية في «ضيعة المنزل الكبير» يعتبر ميزة خاصة . لقد ارتبطت في أذهانهم بالعظمة . ولا يستطيع أي نائب أن يفاخر بانتخابه لمقعد في الكونجرس الأمريكي كما كان يفاخر عبد من المزارع الأخرى إذا أختير لقضاء مأمورية في ضيعة المنزل الكبير . كانوا يعتبرون ذلك دليلاً على الثقة الكبيرة التي يوليها لهم المراقبون . وكان في ذلك ، طعم الرغبة الدائمة

في النجاة من سوط المراقب حين يخرجون الى الحقول !، ولهذا اعتبروه ميزة فـائقة يستحق الشخص أن يعيش من أجلهـا . لقد كـان يسمى بالنبيه ، وبأكثر الرجال صدقاً ، من يحظى بهذا الشرف . وكان المتنافسون على هذا يبحثون بهمة عما يسر مراقبيهم ، كما يبحث الباحثون عن دور في الأحزاب السياسية عن عمـل يسر ويخدع النـاس . نفس سمات الشخصيـة كانت موجودة في عبيد الكولونيل أللويد كما هي موجودة في عبيد الأحزاب السياسية . . .

لقـد كان العبيـد ، الذين يتم اختيـارهم للذهاب إلى ضيعـة المنزل الكبير من أجل الحصـول على حصتهم ، وحصص زمـلائهم الشهريـة من الطعام ، يبتهجون بشكل غريب . وفي طريقهم كانت الأشجار الكثيفة ، الممتدة أميالاً حولهم ، تردد أغانيهم المتوحشة ، التي تكشف عن مزيج المرح العظيم والحزن العميق . كانوا يعزفون ويغنون طوال الطريق ، دون مراعاة للوقت ، ولا للنغم . كانت الفكرة التي تخطر على البال ، تخرج إن لم يكن في كلمة ففي صوت وبالتتابع فيما بينهم . أحياناً يغنون أكثر العواطف شجنا في أكثر الأنغام فرحاً ، أو أكثر العواطف فرحاً في أكثر الأنغام حزناً ، وفي كل أغانيهم يتوقون لعمل شيء في ضيعـة المنزل الكبـير ، فهم حين يفـارقون مزارعهم ، ينطلقون بابتهاج شديد يغنون الكلمات الآتية :

«إنني ذاهب في طريقي الى ضيعة المنزل الكبير» !!

يغنون مثل كـورس . الكلمات التي قـد تبدو للكثيـرين رطانـة بلا معنى ، كانت بالنسبة اليهم مليئة بالمعاني . لقد فكرت أحيـاناً في أن مجـرد الاستماع إلى تلك الأغنيات ، يفعل الكثير في اقناع العقول بالخاصية المرعبة للعبودية ، أكثر من قراءة كل مجلدات الفلسفة حول الموضوع .

لم أفهم ، حـين كنت عبـداً،المعنى العميق لتلك الأغنيـات الخشنـة والبادية التفكك . لقد كنت أنا نفسي داخل الدائرة ، حتى أني لم أر ولم أسمع كما قد يرى ويسمع أولئك الذين خارجها . لقد كانوا يحكون حكاية

عن الحسرة التي كانت بعيدة تماماً عن فهمي البسيط . كان النغم عالياً طويلاً وعميقاً ، أنفاسهم تبدو كصلوات ، ويشكون من أرواحهم المتقلبة في العذاب الأعظم . كل لحن كان إعلاناً ضد العبودية وصلاة إلى الرب كي يخلصهم من القيود . كان سماع تلك الكلمات البريّة يسبب دائماً الاكتئاب لنفسي ، ويملأني بالحزن الذي لا يحيط به وصف . وكثيراً ما وجدت نفسي باكياً حين أسمعهم .

إن مجرد العودة إلى تلك الأغنيات ، يثيرني حتى الآن . . وبينما أكتب هذه السطور فإن نهراً من المشاعر يجد طريقه إلى وجهي . في هذه الأغنيات تلمست أول تصوراتي البريئة عن الهوية غير الانسانية للرق . وحتى الآن فإنني لم استطع التخلص أبداً من ذلك التصور . ولم تزل تلك الأغنيات تتبعني لتعمق الكراهية للرق ، وتسرع بتعاطفي مع اخوتي في القيود . .

إذا شاء أحد أن يرى آثار الرق المدمرة للروح ، دعه يذهب إلى ضيعة الكولونيل اللويد ، في يوم استلام الحصة الشهرية من الطعام ، أو السنوية من الملابس ، وضعه في قلب غابة الصنوبر ، واتركه في صمت يحلل الأصوات التي ستتخلل ثنايا نفسه ، فإذا لم يتأثر بهذه الطريقة سيكون ذلك لأنه « لا يوجد في قلبه الجامد روح » . . .

غالباً ما كنت أندهش بشدة ، منذ أتيت إلى الشمال ، من وجود أشخاص يستطيعون الكلام عن الغناء عند العبيد على أنه علامة على رضاهم وسعادتهم . من المستحيل تصور خطأ أكبر من هذا . يغني العبيد أكثر حين يكونون أكثر تعاسة . أغاني العبد تمثل أحزان قلبه ، وهو يخفف عن نفسه بدموعه . هذه هي خبرتي على الأقل ، فكثيراً ما غنيت لأعرف أحزاني ، ونادراً ما غنيت لأعبر عن سعادتي . إن الصياح بسبب المرح ، والغناء بسبب المرح كانا أمراً غير شائع بالنسبة لي طالما كنت في أسر العبودية . ربما كان غناء انسان طُوّح به بعيداً في جزيرة موحشة، دليلاً على الرضا والسعادة، لكن الأمر يختلف . بالنسبة لغناء العبيد . فأغنياتهم تندفع جميعها بانفعال واحد .

الفصل الثالث

لدى الكولونيل اللويد حديقة واسعة مثمرة ، تتيح العمل الدائم لأربعة من المستخدمين إلى جانب البستاني الرئيسي مستر « أمدورموند » . ولقد كانت هذه الحديقة أكثر الأشياء جاذبية في الضيعة ، فخلال أشهر الصيف كان الناس يأتون من الأماكن القريبة والبعيدة ، من بالتيمور ، وايستون ، وأونابوليس ، ليشاهدوها .

كانت عامرة بالفواكه من كل نوع ، من تفاح الشمال الجاف إلى برتقال الجنوب الطري . لكنها كانت مصدراً للمشاكل في الضيعة ، إذ أن فاكهتها الممتازة كانت مادة اغراء كبير لحشود الأولاد الجوعى ، كما أنه قلّ من كان يملك فضيلة مقاومة هذا الإغراء من بين العبيد القدامى المملوكين للكولونيل . لذلك نادراً ما مر يوم من أيام الصيف دون جلد بعض العبيد عقاباً على سرقة الفواكه . .

لقد اتخذ الكولونيل كل أنواع الاجراءات ليحتفظ بعبيده بعيداً عن الحديقة ، وكانت آخر وأنجح طريقة هي طلاء سياجها بالقطران . بعد ذلك كان أي أثر للقطران على ملابس العبد دليلاً كافياً على أنه إما كان داخلها أو حاول دخولها ، وعلى هذا يتم جلده بقسوة من قبل البستاني . أثبتت هذه الطريقة فاعليتها ، وصار العبيد يخشون القطران خشيتهم للجلد . لقد تحققوا من استحالة لمس القطران دون عقاب .

كان الكولونيل أيضاً يحتفظ بقافلة ركوب ذات خيول رائعـة ، تشبه قوافل السفـر في مدينتنـا الكبيرة ! . . وكـانت خيول الكـولونيـل من أجمل الأشكال وأزكاها دماً . وشملت القافلة ثلاث عربات فاخرة ، وثـلاث أو أربـع عربـات صغيرة من ذات العجلتـين ، وكانت مقـاعـدهـا المتجـاورة والمتقابلة من أحدث الموضات .

أشـرف عـلى هـذه القـافلة عبـدان ، « بـارني الكبـير » « وبـارني الصغير » ـ وهما أب وابن ـ وكانت العناية بالقافلة هي عملهما الوحيد . . لم يكن هذا بأي حال عملاً سهلاً لأن الكولـونيل اللويـد لم يكن مهتماً بشيء اهتمامه بخيوله . فأقل إهمال في هذا الشـأن يعد أمـراً لا يغتفر ، ويكـون العقاب شديداً ، ولا عذر للنجاة .

إن أقل تفكير أو ارتياب في أي تقصير نحو خيول الكولونيل ـ الذي كان يفترض ذلك دائماً في عقله ـ كان كفيلاً بجعل مركز بارني الكبير وبارني الصغير صعباً للغاية . ودائماً لا يعرف أي منهما متى سيفلتان من العقاب . بـل انهما ، بشكل دائم ، يُجلدان حـين لا يستحقان ذلـك ، وينجوان من الجلد حين يستحقانه ، فكل شيء كان يعتمد على مظهـر الخيول ، وحـالة الكولونيل أللويد المزاجية حين يطلب الخيول لاستخدامها، فإذا لم يتحرك الفرس بسرعة كافية ، أو إن لم يحتفظ برأسه عالياً بدرجة كافية ، يُرجع هذا لأخطاء المعتنين به. لقد كان الكولونيل يقف أمام الاسطبل متألماً ويرسل الشكاوى العديدة ضد القائمين على خيوله في الوقت الذي يتم فيه إخراج أي فرس يطلبه . فهذا الفرس لم يحظ بعناية كافية ، أو لم يُنظف جيداً ، ولم يُمشط جيداً ، وربما لم يُطعم ، أو كان طعامه رطباً جداً ، أو جافاً جداً ، أو أنه قدم إليه قبل الموعد أو بعده ، وربما كان ساخناً جداً أو بارداً للغاية ، أو أن الفرس أكل كثيراً من التبن ولم ينل مـا يكفي من الحبوب ، أو أكـل كثيراً من الحبوب ولم ينل ما يكفي من التبن ، أو أن بارني الكبير بدلاً من أن يعتني بالفرس تركه لابنه . . .

وأمام كل هذه الشكاوى يقف العبد صامتاً . . مستر اللويد لا يحتمل

أي اعتراض من العبد ، وحين يتكلم لا بد أن يقف العبد صامتاً ومرتعشاً . . .

لقد رأيت الكولونيل اللويد يجعل بارني العجوز - الذي يبلغ ما بين الخمسين والستين من العمر - يعري رأسه الأصلع ، ويركع على الأرض الباردة والرطبة ويتلقى على عنقه وكتفيه العاريين أكثر من ثلاثين جلدة في كل مرة . .

كان للوكولونيل اللويد ثلاثة أبناء هم ادوارد ، موراي ، ودانيال . وثلاثة أزواج لبناته هم مستر ويندر ، مستر نيكلسون ، ومستر لونديس ، وكلهم يعيشون في الضيعة الكبيرة ويتمتعون بجلد الخدم وتضرعهم ، بدءاً من بارني الكبير حتى ويليام ويلكسي سائق احدى العربات الصغيرة . لقد رأيت ويندر يجعل أحد الخدم يقف بعيداً عنه مسافة مناسبة كي يلمسه طرف السوط ، ومع كل ضربة كانت تظهر على ظهر الخادم فجوة كبيرة . .

إن وصف ثروة الكولونيل اللويد مساو تقريباً لوصف كثرة الأعمال . إنه يحتفظ بخدم يتراوح عددهم بين عشرة وخمسة عشر في المنزل، ولقد قال مرة إنه يملك ألف عبد ، وأعتقد أن هذا مخالف للحقيقة ، فالكولونيل يملك الكثير جداً حتى أنه لا يعرفهم حين يراهم . كما أنه لا يعرف كل عبيد المزارع الأخرى . ولقد قيل إنه ، بينما كان يقود حصانه على الطريق ذات يوم ، قابل رجلاً ملوناً فخاطبه بالأسلوب المعتاد لمخاطبة الملونين في اللهجة السائدة بالجنوب .

« هنا يا ولد . . من يملكك ؟ » . .

أجاب العبد .

« الكولونيل اللويد » .

« حسن . هل يعاملك الكولونيل معاملة طيبة ؟» .

وكانت الاجابة الجاهزة هي :

« لا يا سيدي » .

« ماذا . هل يجعلك تعمل كثيراً »؟ . . .

« أجل يا سيدي » .

« حسن . ألا يعطيك ما يكفي لتأكل » ؟ .

« بلى يا سيدي . إنه يعطيني ما هو مقرر » .

عاد الكولونيل وتأكد من مالك العبد !، واستمر في طريقه ، واستمر العبد في عمله غير حالم بأنه إنما كان يتحدث مع سيده ، ولم يفكر أن يتحدث مع أحد فيما جرى . مر أسبوعان أو ثلاثة على الحادث ، ثم أخبر المراقب العبد التعس بأنه بسبب خطأ ارتكبه في حق سيده ، سوف يُباع الى تاجر ولاية جورجيا .

وسرعان ما قيد العبد بالسلاسل ، وبلا أي انذار سابق ، قُذف به بعيداً ، وإلى الأبد عن أسرته وأصدقائه بيد أقسى من الموت . . كانت هذه هي عاقبة قول الحق ، الحق البسيط في الإجابة على سلسلة من الأسئلة البسيطة . . .

بناء على هذه الحقائق ، كان العبيد حين يُسألون عن أحوالهم ، وخصائص أسيادهم ، يقولون تقريباً ، وبشكل عام ، إنهم راضون ، وإن أسيادهم طيبون . ولقد عرف ملاك العبيد كيف يرسلون الجواسيس بين عبيدهم ليتأكدوا من آرائهم ومشاعرهم . نتج عن ذلك أن تأسس بين العبيد المثل القائل « الصمت رأس الحكمة » . صاروا يقمعون الحق في نفوسهم بدلاً من تلقي تبعات البوح به ، فبهذا يثبتون أنفسهم - في نظر أسيادهم - كجزء من الجنس البشري . وهكذا فإذا كان لدى العبيد شيئاً يقولونه عن أسيادهم ، فهو عموماً يدور حول جمائل هؤلاء الأسياد ، خاصة حين يكون الحديث موجهاً لرجل غير مجرب . لقد سُألت كثيراً وأنا عبد ، ما إذا كان سيدي طيباً ، ولا أذكر أني أعطيت قط اجابة سلبية . ولم أعتبر نفسي ، متحدثاً بما هو زائف على الاطلاق . ذلك أني دائماً كنت أقيس طيبة سيدي ، بمستوى الطيبة المعتمد بين ملاك العبيد حولنا .

بالإضافة إلى ذلك إن العبيد ، يشبهون الناس الآخرين ، ويعون تماماً التعصبات الشائعة بين غيرهم . وهم يعتبرون أنفسهم بدورهم أفضل من غيرهم . وتحت تأثير هذا التعصب إعتقد الكثيرون أن أسيادهم أفضل من أسياد العبيد الآخرين . ويتم هذا أيضاً حين يكون العكس هو الصحيح . لقد شاع بين العبيد الشجار حول الفضائل النسبية لأسيادهم فكل فريق كان راضياً عن الطيبة الفائقة لسيده أمام الآخرين . وفي نفس الوقت ، كانوا يمقتون جميعاً أسيادهم حين ينفصلون . هكذا كان الحال في ضيعتنا . إذا قابل عبيد الكولونيل اللويد عبيد جاكوب جيبسون نادراً ما ينفصلون دون معركة بسبب أسيادهم . يقرر عبيد الكولونيل اللويد أنه الأغنى ، ويتباهى عبيد جيبسون بأنه الأكثر أناقة والأكثر رجولة . عبيد الكولونيل اللويد يفاخرون بقدرته على بيع وشراء جاكوب جيبسون . عبيد جاكوب جيبسون يفاخرون بقدرته على أن يجلد الكولونيل اللويد .

كانت هذه المماحكات تنتهي غالباً بقتال بين الفريقين ، والفائزون يعتزون بأنهم حازوا نقطة في هذا المجال ، ويبدون وكأنهم قد اقتنعوا بأن عظمة سيدهم قد حلت بهم . حقاً لقد كان شيئاً سيئاً أن تكون عبداً ، ولكن أن تكون عبداً لرجل فقير فقد كان ذلك هو الشيء المحتقر . .

الفصل الرابع

ظل مستر هوبكينز وقتاً قصيراً كمراقب . لماذا كان عمله قصيراً ؟ . لا أعرف . ربما كانت تنقصه القسوة الضرورية ليرضي الكولونيل اللويد . لقد حل محله مستر « أوستن جور » ، الرجل الذي يملك إلى درجة كبيرة ، كل سمات الشخصية التي لا غنى عنها ، لما كان يسمى بمراقب الدرجة الأولى .

لقد خدم مستر جور الكولونيل اللويد ، كمراقب لواحدة من المزارع المحيطة ، وظهر جديراً بالمركز السامي للمراقب في الضيعة الكبيرة . لقد كان رجلاً متفاخراً ، طموحاً ومثابراً ، وكان ماكراً وقاسياً وجامد القلب .

كان بالضبط الرجل المناسب لهذا المكان . وكان المكان مناسباً له ، فهو يهيىء له المجال للممارسة التامة لكل قواه ، وهو فيه يبدو في بيئته تماماً . كان واحداً من الذين يعتبرون اللمحة ، أو الكلمة ، أو الحركة من جانب العبد ، وقاحة ويتعاملون معها على هذا الأساس . لم تكن هناك اجابة على ما يقول ، ولا تفسير يسمح به للعبد الذي يجد نفسه متهماً بأي خطأ . لقد أدرك مستر جور تماماً الهدف المقرر من قبل ملاك العبيد ، « أن يقاسي مجموعة من العبيد تحت السوط أفضل من اتهام المراقب في حضور العبيد ، بارتكاب الخطأ » .

لم يكن هناك معنى لمدى براءة العبد ، فهذا لا يقدم له شيئاً حين يتهمه مستر جور بأي سوء سلوك . أن تُتهم يعني أن تُدان ، أن تُدان يعني أن تُعاقب ، الواحدة تتبع الأخرى في تأكيد لا ينفصم . تفادي العقاب يعني تفادي الاتهام أصلاً ، وقليل من العبيد من كان لهم الحظ في ذلك تحت مراقبة مستر جور .

كان فخوراً تماماً بإجباره للعبيد على الولاء الحقير ، ومتذللاً تماماً ليخضع عند أقدام سيده. كان طموحاً إلى درجة كبيرة فلا يرضى بأقل من أعلى مرتبة بين المراقبين ، ومثابراً الى درجة كافية ليصل إلى قمة طموحة .

كان قاسياً في عقابه ، خبيثاً يستخدم أحط الحيل . جامد القلب لدرجة تُفقده الإحساس بصوت الضمير . لقد كان من بين كل المراقبين أكثر من يرهبهم العبيد . مظهره يسبب الألم ، وعيناه تلمعان بالفوضى ، ونادراً ما يُسمع صوته الحاد الحاسم دون أن يثير الرعب والرعشة في أبدانهم . كان مستر جور رجلاً ميتاً . ورغم أنه شاب إلا أنه لم يمل إلى النكات ، ولم ينطق بكلمة ضاحكة ، ونادراً ما ابتسم . كانت كلماته متسقة تماماً مع نظراته ونظراته متسقة تماماً مع كلماته . أحياناً كان المراقبون يلقون ببعض النكات ، حتى مع العبيد ، ولم يكن مستر جور كذلك . انه يتكلم ليأمر ، ويأمر كي يطاع ، يتعامل مع الكلمات باقتصاد ، ومع السوط بإسراف . نادراً ما يستخدم الأولى ، بينما يستخدم الأخير جيداً . وحين يجلد أحد العبيد يبدو كمن يؤدي واجباً لازماً ، ولا يخشى أية عاقبة . لا يتردد في عمل أي شيء ، حتى لو كان غير مقبول ، فمن ناحيته لا يجد في ذلك أي تناقض . ولم يكن يتوعد إلّا ليفي . كان بجملة واحدة رجل الجمود الأكثر صلابة ورجل البرود الحجري .

كانت بربريته تتساوى مع بروده المطلق ، الذي به ينفذ أكثر الأعمال وحشية وبشاعة ، على العبيد الذين يتولى أمرهم . لقد استعد ذات مرة ليجلد أحد عبيد الكولونيل اللويد ، وكان اسمه « ديمبي » وبعد أن تلقى ديمبي عدة جلدات قليلة ، أراد أن يتخلص من الجلد فجرى وألقى بنفسه

في جدول ووقف في عمق يصل فيه الماء إلى كتفيه ورفض الخروج . اعلمه مستر جور أنه سيناديه ثلاث مرات فإذا لم يخرج عند النداء الثالث أطلق عليه النار . عند أول نداء لم يستجب ويمبي وظل واقفاً . ومر النداء الثاني والثالث ولم تتغير النتيجة . حينئذ ودون استشارة أحد ، أو اعتبار لأي أحد ، ودون حتى أن يطلق مستر جور نداء اضافياً ، رفع بندقيته إلى وجهه جاعلاً من ضحيته هدفاً جامداً ، وفي لحظة لم يعد هناك ديمبي البائس . خرج جسده الممزق من المشهد ، وخضب دمه ماء الجدول حيث كان يقف .

دوامة من الرعب اشتعلت في كل روح في الضيعة الا مستر جور . هو وحده الذي بدا بارداً وواثقاً . سأله الكولونيل اللويد ، وسيدي القديم ، ما الذي دفعه إلى هذا العمل الخارق وكانت اجابته - بقدر ما استطيع أن أتذكر - هي أن ديمبي أصبح متمرداً وكان مثالاً خطراً للعبيد الآخرين ، وبدون مثل هذه الأفعال من جانبه سوف تكون النهاية فوضى شاملة ، وخروجاً على كل القوانين والنظم في الضيعة . وقال إنه إذا رفض أحد العبيد الإصلاح ، ولم يُقتل ، فإن العبيد الآخرين سيصبحون نسخة عنه ، والنتيجة ستكون تحرير العبيد ، وعبودية البيض . .

كان دفاع مستر جور مرضياً ، واستمر في مركزه كمراقب للضيعة ، وذاعت شهرته كمراقب خارجها ، ولم تخضع جريمته المرعبة لأي مساءلة قانونية . لقد ارتكب جريمته في حضور العبيد ، وهم بالطبع لا يستطيعون تأسيس موقف ، أو تقديم شهادة ضده . وهكذا فإن مرتكب جريمة من أكثر الجرائم دموية يعيش مفلتاً من العدالة ، ودون لوم من المجتمع الذي يعيش فيه . لقد كان مستر جور يعيش في مزرعة سانت ميشيل ، بمقاطعة تالبوت ، بولاية ميريلاند حين غادرتها . وإذا كان لا يزال حياً ، فمن المحتمل أنه لا يزال يعيش هناك الآن ، وإذا كان الأمر كذلك ، فهو الآن ، كما كان من قبل ، يعيش مبجلاً ومحترماً برغم جريمته . إن روحه لم يصبها دم أخيه بالعار .

إنني أتحدث واثقاً حين أقول هذا . إن قتل عبد أو أي شخص ملون في مقاطعة تالبوت بولاية ميريلاند لم يُعامل كجريمة حتى من قبل المجتمع . لقد قتل مستر توماس لينمان ، من سانت ميشيل ، عبدين . قتل أحدهما بالبلطة فأخرج مخه من رأسه . واعتاد أن يزهو بهذا العمل الدموي المرعب . لقد سمعته يقول ضاحكاً ، من بين أشياء أخرى ، بأنه أول فاعل خير في بلده ، وحين يفعل الآخرون مثله سيتحررون من الزنوج . . .

زوجة مستر جيليس هيكس التي تعيش على بعد مسافة قصيرة من حيث كنت أعيش قتلت ابنة خال زوجتي . كانت فتاة صغيرة بين الخامسة والسادسة عشرة من عمرها . حطمت مسز هيكس جسدها بأكثر الأفعال بشاعة ، كسرت أنفها وقفصها الصدري بهراوة ، وماتت الفتاة المسكينة بعد ساعات قليلة وبسرعة تم دفنها . لكن قبل دفنها قرر الطبيب الشرعي بأنها ماتت من جراء الضرب الحاد .

لقد كان الذنب الذي جنته هذه الفتاة هو أنها بينما كانت تجلس تلك الليلة ترعى طفل مسز هيكس نامت وصاح الطفل . لقد فقدت الفتاة كثيراً من راحتها في ليالٍ طويلة سابقة فنامت ولم تسمع صراخ الطفل . كانت مسز هيكس نائمة في نفس الغرفة فاستيقظت ، ولما وجدت الفتاة بطيئة الحركة ، قفزت من سريرها وأمسكت بعصا من شجر البلوط من بين أخشاب المدفأة ، وبها كسرت أنف الفتاة ، وحطمت قفصها الصدري ، وهكذا أنهت حياتها .

لن أقول إن هذا القتل المرعب لم يثر أي احساس في البلدة . لقد أثار احساساً . لكن لم يكن كافياً لتلقى القاتلة عقابها . كان هناك أمر بالقبض عليها لكن لم ينفذ أبداً . وهكذا نجت مسز هيكس ، ليس فقط من العقاب ، ولكن أيضاً من ألم المثول أمام المحكمة جزاء جريمتها البشعة .

إنني ، وبينما أفصل الأفعال الدموية التي جرت خلال وجودي في ضيعة الكولونيل اللويد ، سوف أقص باختصار حادثة أخرى حدثت في

نفس الوقت الذي قتل فيه مستر جور (ديمبي) . لقد اعتاد عبيد الكولونيل إنفاق جزء من ليـالي وأيام الآحـاد في صيد المحـار . بهذه الـطريقة كـانوا يعوضون نقص حصصهم الشحيحة . وحدث أن رجلاً عجوزاً من عبيـد الكولونيل ، وخلال انهماكه في الصيد ، أصبح خلف حدود ضيعة الكولونيل وداخل منطقة مستر « بيل بوندلي » . عند هذه اللحظة تناول مستر بـوندلي بندقيته وأتى الى الشاطىء وأطلق محتوياتها القاتلة على العجوز البائس .

جاء مستر بوندلي في اليوم التالي ليرى الكولونيل اللويد . ربما ليدفع له ثمن ممتلكاته أو ليبرر له فعلته . لا أعرف . على أي حـال ، فإن هـذه الأفعال الشيطانية سرعان ما كانت تُنسى ، ولا يبقى إلا القليل جداً ليقال عنها ، ولا يوجد شيء ليُعمل .

لقد صار قـولاً شائعـاً ، حتى بين الأولاد البيض الصغار ، إن قتـل زنجي يساوي نصف سنت ، ونصف سنت لتدفنه . . .



الفصل الخامس

لم تختلف معاملتي ، بينما كنت أعيش في ضيعة الكولونيل اللويد عن تلك التي يلقاها الأطفال العبيد . كانت حياتي تشبه حياتهم ، ولم أكن كبيراً بما يكفي للعمل في الحقول . وكانت الأعمال الأخرى التي أقوم بها صغيرة ، ومن ثم كان لدي الكثير من وقت الفراغ . أكبر ما كنت أقوم به كان أن أقود الأبقار في المساء إلى الحظيرة ، أو أهش الدجاج عن الحديقة ، أو أنظف الفناء الأمامي ، أو ترسلني مسز لوكريشيا مع ابنة سيدي القديم في مشاوير أقضي فيها بعض حاجاتها . كنت أمضي معظم وقت فراغي في مساعدة السيد « دانيال اللويد » في البحث عن طيوره بعد أن يطلق عليها النار .

كان ارتباطي بالسيد دانيال ذا فائدة ، فقد أصبح منجذباً نحوي تماماً وشكل نوعاً من الحماية لي . لم يكن يسمح للأولاد الكبار بالاحتيال علي ، وكان يقتسم كعكه معي .

نادراً ما جلدت من قبل سيدي القديم . وعانيت القليل من كل شيء إلا البرد والجوع . عانيت كثيراً من الجوع ، وأكثر من الكثير من البرد . في الصيف الحار ، وفي الشتاء القارس ، كنت عارياً تقريباً . لا حذاء ، لا جورب، لا سترة ولا سروال . لا شيء فوقي سوى قميص من الكتان الخشن يصل فقط إلى ركبتي، ولم يكن لي سرير ، كان يجب أن أهلك من

البرد ، لكني في الليالي الباردة اعتدت أن أسرق جوالاً مما يُستخدم في حمل الذرة إلى الطاحونة ، وأزحف داخله . أنام على الأرض الباردة الرطبة اللزجة ، رأسي داخل الجوال وقدماي خارجه . تشققت قدماي من أثر الثلج إلى الدرجة التي تكفي القلم الذي أكتب به الآن كي يرقد في شقوقها .

لم نكن نحصل على حصصنا من الطعام بانتظام ، وكان طعامنا وجبة من الذرة الجافة المغلية في الماء . كان هذا يوضع في اناء خشبي كبير أو « معجنة » فوق الأرض ثم يُنادى الأطفال كالخنازير ، ومثل الخنازير كانوا يأتون ويلتهمونه . البعض بالمحار والاخرون بقطع من الأصداف . البعض بيديه العاريتين ولا أحد يستخدم الملاعق . والذي يأكل أسرع هو الذي يحصل على كمية أكبر . الأقوى يذود عن المكان الأفضل ، وقليلون هم الذين يتركون الإناء راضين .

من المحتمل أني كنت بين السابعة والثامنة من عمري حين غادرت ضيعة الكولونيل اللويد . لقد تركتها سعيداً . ولن أنسى أبداً السعادة التي استقبلت بها النبأ بأن سيدي القديم أنطوني وافق على ذهابي إلى « بالتيمور » لأعيش مع مستر هوف أولد ، وهو أخو توماس أولد زوج ابنة سيدي القديم .

لقد عرفت النبأ قبل رحيلي بثلاثة أيام ، فكانت هذه الأيام الثلاثة من أسعد الأيام التي لم أسعد بمثلها قط . . أمضيت أكثر وقتي في النهر أغسل عن نفسي قذارة المزرعة وأعد نفسي للرحيل .

لم يكن مبعث هذه النظافة من عندي ، ولم أفكر في التفاخر بمظهري وليس لرغبة مني أنفقت الوقت في الاستحمام ، ولكن كان ذلك لأن مسز لوكريشيا أخبرتني بأن علي أن أتخلص من كل القشف فوق قدمي وركبتي قبل أن أستطيع الذهاب إلى بالتيمور ، لأن الناس في بالتيمور نظيفون جداً ، وسيضحكون من منظري إذا بدوت قذراً . بالإضافة إلى أنها سوف

تعطيني سروالاً يجب أن لا أرتديه قبل أن أتخلص من كل القذارة التي على جسدي . كانت فكرة امتلاك سروال عظيمة حقاً . كانت تقريباً حافزاً كافياً ، ليس فقط لجعلي أتخلص مما قد يسميه مربو الخنازير الجرب ، ولكن من جلدي نفسه . وذهبت اليها بمظهر طيب ، وقد قمت لأول مرة بعمل لأمل في جائزة .

إن الوشائج التي تربط الأطفال ببيوتهم كانت كلها محل شك في حالتي . لذلك لم يسبب رحيلي أية أزمة لي . لقد كان بيتي مُتعباً . . لم يكن بيتاً بالنسبة لي ، ولم يكن هناك رحيل منه ، ولم أشعر بأني أترك أي شيء عزيز قد يسرني إذا بقيت. كانت أمي قد ماتت، وجدتي تعيش بعيداً ونادراً ما أراها، وكان لي أختان وأخ عاشوا في نفس المكان معي، لكن الفصل المبكر لنا عن أمنا طمس تقريباً حقيقة قرابتنا من ذاكرتنا. لقد تطلعت الى بيت في مكان آخر ، وكنت واثقاً أنه لا وجود لبيت تكون متعتي فيه أقل من الذي عشت فيه . وإذا وجدت في بيتي الجديد قسوة ، جوعاً أو جلداً أو عرياً ، فإن ما يعزيني هو أنني لم انج من أي منها ، خاصة وأني نلت منها أكثر مما أتحمل في منزل سيدي القديم . وحيث خبرتها هناك ، فمن الطبيعي أن أعتاد القدرة عليها في أي مكان ، وخاصة في بالتيمور ، ذلك أنه كان لدي شعور ما عن بالتيمور يعبر عنه المثل الانجليزي القائل « أن تُشنق في انجلترا خير من أن تموت طبيعياً في ايرلندا » .

كانت لدي رغبة عارمة لرؤية بالتيمور . ولقد أثارني ابن خالي توم ، رغم أنه لا يتكلم بطلاقة ، بهذه الرغبة . لقد اشعل وصفه للمكان من لا شيء . لم أذكر قط أي شيء في المنزل الكبير بوصفه جميلاً أو قوياً إلا وقال إنه رأى في بالتيمور ما هو أكثر منه جمالاً وقوة . حتى المنزل الكبير نفسه ، بما فيه من لوحات ، فهو ناقص بالقياس إلى المباني في بالتيمور . كانت رغبتي قوية للغاية حتى فكرت أن اشباعها سيعوضني تماماً عن أي راحة أفقدها من جراء هذا الاستبدال . غادرت المكان دون أسف وبآمال كبيرة بمستقبل سعيد .

أبحرنا عبر نهر المايلز صباح يوم سبت . اتذكر اسماء الأيام فقط ،

لأنه في ذلك الوقت لم تكن لدي أية معرفة عن أيام الشهر ولا شهور السنة. عند بداية الإبحار تقدمت إلى مؤخرة السفينة ، وألقيت على ضيعة الكولونيل اللويد ما تمنيت أن يكون النظرة الأخيرة ، ثم وضعت نفسي في مقدمة السفينة، وهناك أمضيت ما تبقى من اليوم ناظراً إلى الأمام مسلياً نفسي بما هو بعيد أكثر مما أراه قريباً أو خلفي .

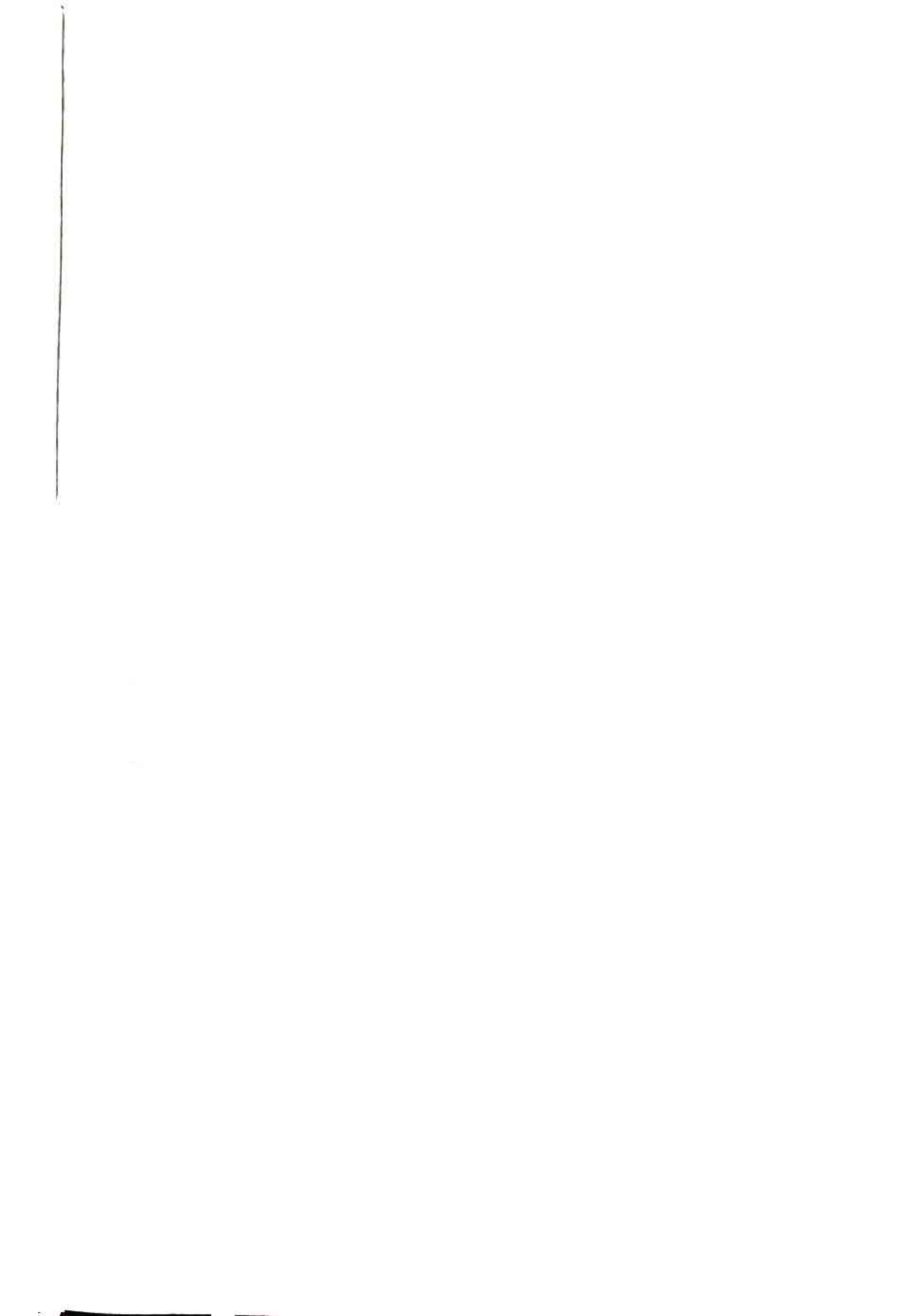
وصلنا «أنابوليس» عاصمة الولاية في عصر ذلك اليوم . توقفنا لكن للحظات ، ومن ثم لم أجد وقتاً للخروج إلى الشاطىء . كانت هذه أول أكبر بلدة رأيتها في حياتي ، رغم أنها تبدو صغيرة بالمقارنة مع بعض قرانا في نيوانجلند . فكرت أنها مكان رائع لأن حجمها كان له تأثير خادع أكثر من ضيعة المنزل الكبير ! .

وصلنا بالتيمور مبكراً صباح الأحد . رسونا عند مرسى سميث ليس بعيداً من مرسى باولي . كان معنا على ظهر المركب قطيع كبير من الأغنام ، وبعد المساعدة على سوقها إلى مذبح مستر كورتيس في «لودن سلوترز هيل» قادني ريتش ، أحد العاملين على السفينة إلى بيتي الجديد في « ايليشيانا ستريت » بالقرب من ترسانة مستر جاردنر في « فيلزبوينت » .

كان كلٌ من مستر ومسز أولد بالمنزل ، وقابلاني عند الباب مع ابنهما الصغير توماس الذي سأقوم على رعايته . هناك رأيت ما لم أره من قبل ، وجهاً أبيض يشع بأكثر الانفعالات طيبة . . كان ذلك وجه سيدتي الجديدة صوفيا أولد .

أتمنى لو أستطيع أن أصف نشوة الفرح التي لمعت في روحي حين رأيت وجهها . لقد كان شكلاً جديداً وغريباً عليّ ، أضاء طريقي بنور السعادة . لقد بُلِّغت بالعناية بتوماس الصغير ، وهكذا دخلت في واجباتي في بيتي الجديد بأكثر المشاهد سعادة أمامي . انني أنظر إلى رحيلي عن ضيعة الكولونيل اللويد كواحد من أكثر الأحداث سروراً في حياتي . من الممكن ، ومن الجائز تماماً ، أنه لولا الظرف البسيط بإبعادي عن تلك الضيعة إلى

بالتيمور ، كنت اليوم بدلاً من وجودي هنا جالساً الى مكتبي ، مستمتعاً بالحرية ، وسعيداً بالحياة المنزلية أكتب هذه السيرة ، كنت لا زلت أرسف في أغلال العبودية . إن الذهاب للعيش في بالتيمور أسس قاعدة ، وفتح طريقاً ، لكل سعادتي اللاحقة . دائماً اعتبر هذا الرحيل أول تجسيد واضح لذلك النوع من العناية الإلهية التي تعهدتني منذ ذلك الحين وكللت حياتي بكثير من الكرم . لقد اعتبرت اختياري بالذات لهذا الرحيل شيئاً غير عادي . . كان هناك عدد من الأطفال العبيد يمكن أن يرسلوا إلى بالتيمور . كان هناك أولئك الصغار ، وأولئك الكبار ، ومن هم في نفس عمري . لكني أُخترت من بينهم جميعاً وكنت الأول والأخير . ربما أبدو خيالياً ، وأنانياً لاعتباري ذلك الحدث تدخلاً خاصاً للعناية الإلهية لكن أكون مزيفاً لعواطفي إذا قمعت هذه الفكرة . أفضل أن أكون صادقاً مع نفسي ، حتى في الجرأة في التقليل من شأن الآخرين ، عن أن أكون مزيفاً وأتسبب في مقت نفسي . إنني منذ ذكرياتي الأولى تمسكت باعتقاد عميق بأن العبودية لن تكون قادرة أبداً على أن تمسك بي داخل حضنها الأحمق . . وفي ساعات الظلام الحالك ، أيام استعبادي ، كانت كلمة الصدق الحية هذه ، وروح الأمل ، لا تنفصلان عني ، بل بقيتا مثل الملائكة المقربين ، تهتفان لي خلال الظلام . هذه الروح الطيبة كانت من عند الله ، وله الشكر والحمد . . .



الفصل السادس

برهنت سيدتي الجديدة على انها كانت كما بدت لي عند لقائي الأول بها . امرأة تحمل أطيب قلب واجمل مشاعر . لم تكن قد امتلكت عبداً قبلي ، وكانت تعمل قبل زواجها ، وتعتمد على نفسها لتحيا . كانت تتجر في المنسوجات. كنت في دهشة كبيرة امام طيبتها ، ونادراً ما عرفت كيف أتصرف أمامها . لم تكن تشبه قط أية امرأة بيضاء رأيتها من قبل ، ولم يكن ممكناً معاملتها كما اعتدت أن أتعامل مع السيدات البيض الأخريات . كل ما تعلمته من قبل أصبح غير ذي أهمية . ولم يكن الانحناء الذليل ، وهي العادة المقبولة من العبد ، مناسباً حين أصبح أمامها . لم يفد ذلك في كسب ودها ، بل بدت تنزعج منه ، لأنها لم تكن تعتبر نظر العبد إليها بشكل مباشر ، سفاهة أو سلوكاً بشعاً . لقد كان أحقر العبيد يجد البساطة في حضورها ، ولم يكن أحد يتركها دون شعور جميل برؤيتها . كان وجهها مصنوعاً من ابتسامات سماوية ، وصوتها من موسيقى ناعمة .

ولكن ، وا أسفاه ! ، فهذا القلب الطيب لم يبق طويلاً هكذا . كان السم المحتوم للقوة غير المسؤولة جاهزاً بين يديها ، وسرعان ما بدأ عمله المدمر . تلك العينين المبتهجتين سرعان ما أصبحتا ، تحت تأثير الرق ، مشتعلتين بالغضب . ذلك الصوت الذي يصنع التوافق الحلو ، تبدل الى صوت تنافر مرعب أجش . والوجه الملائكي ترك مكانه لوجه الشيطان .

بسرعة بعد أن وصلت لأعيش بين أسرتها بدأت برقة تعلمني الأبجدية . ثم ساعدتني في تعلم تهجي الكلمات ذات الثلاثة والأربعة أحرف . وعند هذه النقطة من تقدمي اكتشف مستر أولد ما يجري ، وفي الحال منعها من الاستمرار في تعليمي أكثر من ذلك . أخبرها من بين أشياء أخرى قالها ، إن هذا غير قانوني ، وغير مأمون العواقب . وبنفس كلماته قال « إذا أعطيت زنجياً بوصة ، سيأخذ ذراعاً . لا يجب أن يتعلم الزنجي شيئاً غير طاعة سيده في أن يعمل ما يطلب منه عمله . التعليم يفسد أفضل زنجي في العالم ، والآن ، إذا علمت هذا الزنجي ـ وكان يقصدني ـ القراءة فلن يبقى هنا ، سوف يصبح من غير المناسب له أن يبقى عبداً ، سوف يصبح في الحال متمرداً وبلا نفع لسيده ، وبالنسبة له نفسه سيكون ذلك سيئاً ومصدراً لألم كبير إذ سيسبب له السخط والتعاسة » .

إنسكبت هذه الكلمات عميقاً في قلبي ، حركت فيه العواطف النائمة ، واستدعت إلى الوجود تياراً جديداً تماماً من الأفكار . كانت هذه رؤية خاصة وجديدة تفسر الأشياء الناقصة والمبهمة التي كافح رأسي الصغير عبثاً ليفهمها . الآن فهمت ما كان بالنسبة لي أكثر المصاعب حيرة ، أعني قوة الرجل الأبيض في استعباد الرجل الأسود . لقد كان هذا مكسباً عظيماً ، ولقد قدرته عالياً. منذ تلك اللحظة فهمت الطريق من العبودية إلى الحرية . وكان هذا بالضبط ما أردته ، وحصلت عليه في وقت أقل مما توقعت . وبينما كنت حزيناً بسبب التفكير في خسارتي لمساعدة سيدتي الطيبة ، كنت سعيداً بالمعلومة التي لا تقدر ، التي بالصدفة المحضة ، كسبتها من سيدي . وبرغم الوعي بصعوبة التعلم دون مدرس ، امتلأت بأمل كبير ، وهدف ثابت ، هو أن أتعلم كيف أقرأ مهما كلفني ذلك من صعاب . إن الطريقة الواثقة جداً التي تحدث بها سيدي ، واجتهاده في التأثير على سيدتي بالحديث عن العواقب الشريرة لتعليمي ، أفادا في إقناعي بأنه كان عميق الإحساس بالحقائق التي تفوه بها . لقد وهبني ذلك أفضل تأكيد بأنه لا بد لي من التعويل على الثقة الكبرى في النتائج التي قال عنها أنها ستتبع تعليمي

القراءة . إن أعظم ما يخافه هو أعظم ما أريده، وأعظم ما يحبه هو أعظم ما أكرهه ، ما هو بالنسبة إليه شر عظيم يجب تجنبه ، كان بالنسبة لي خير عظيم يجب إدراكه بتصميم . إن المناقشة التي أدارها بحماس ضد تعليمي القراءة أفادت فقط في اعطائي الرغبة والتصميم على التعليم . وهكذا ففي تعلمي القراءة أدين تقريباً إلى المعارضة الحادة لسيدي أكثر مما أدين إلى المساعدة الرقيقة لسيدتي . ولقد استفدت من الجانبين .

أقمت فترة قصيرة في بالتيمور قبل أن ألاحظ فارقاً أساسياً في معاملة العبيد بالمقارنة مع ما شاهدته في الريف . عبد المدينة رجل حر تقريباً بالقياس إلى العبد في المزرعة ، فهو يحصل على طعام أفضل ، وثياب أفضل ويتمتع بمزايا غير معروفة بالمرة لعبد المزرعة . كان هناك سمة من الأدب ، احساس بالخجل ، يساعدان كثيراً في كبح أولئك الذين ينفجرون بنفس القسوة السائدة في المزرعة ، إن مالك العبيد الذي يصدم انسانية جيرانه من غير ملاك العبيد بصرخات عبده الجريح يكون معزولاً عن الناس . وقلّ من أراد أن يجر على نفسه سمعة بشعة كسيد قاس . وفوق كل شيء فإن ملاك العبيد هنا لا يحبون أن يشتهروا كبخلاء في تزويد عبيدهم بالطعام . كل مالك للعبيد في المدينة كان يشتاق لأن يذاع عنه أنه يطعم عبيده جيداً . . لذلك فمن المناسب أن أقول إن معظم الملاك كانوا يطعمون عبيدهم بدرجة كافية .

بالطبع كان هناك بعض الاستثناءات المؤلمة لهذه القاعدة . ففي مواجهتنا مباشرة في فيلبوت ستريت يعيش مستر توماس هاميلتون الذي يمتلك عبدين هما «هنرييتا» و«ماري». كانت هنرييتا في حوالى الثانية والعشرين وماري في حوالى الرابعة عشرة، وكان لهما، من بين كل الوجوه الشاحبة والممزقة التي رأيتها ، أكثرها . لا بد أن قلبه كان أقسى من الحجر حتى لا يرق لرؤيتهما . كان رأس ماري ورقبتها وكتفيها جميعها ممزقة مقرّحة . لقد تحسست رأسها أكثر من مرة ووجدته تقريباً مغطى بالبثور المقروحة التي سببها سوط سيدتها القاسية . لم أعرف أن سيدها يجلدها دائماً ، لكني

شاهدت سيدتها مسز هاملتون وقسوتها ، ذلك أني اعتدت أن أوجد في منزل مستر هاملتون كل يوم تقريباً .

لقد اعتادت مسز هاملتون الجلوس في مقعد كبير في وسط الغرفة وسوط ثقيل من جلد البقر دائماً الى جانبها ، ونادراً ما تمر ساعة خلال اليوم دون أن تُخضّب بدم احدى هاتين العبدتين . نادراً ما تمر فتاة جوارها دون أن تقول « تحركي بسرعة أيتها السوداء اللئيمة » . وفي نفس الوقت تصوب إلى رأسها ضربة بالسوط أو على الكتفين فينزف الدم . حينئذ تقول « خذي أيتها السوداء اللئيمة » ! ثم تستمر « إذا لم تتحركي بسرعة سأحركك » ولا ينقطع الجلد القاسي لهاتين العبدتين اللتين تعيشان نصف جائعتين ، ونادراً ما عرفتا طعم تناول وجبة كاملة . لقد شاهدت ماري تصارع الخنازير وتزاحمهم على النفايات الملقاة في الشارع . ولقد كانت ماري ممزقة ومشوهة مليئة بالندوب والثقوب حتى انها غالباً ما كانت تنادى « بالمُنقَّرة » لكثرة ندوبها وثقوبها أكثر مما تنادى باسمها . . .

الفصل السابع

عشت بين عائلة السيد هوف حوالى سبع سنوات ، وخلال هذا الزمن نجحت في تعلم القراءة والكتابة . ومن أجل الوصول الى ذلك ، اضطررت لاستخدام حيل مختلفة .

لم يكن لي مدرس منتظم ، فسيدتي التي دفعها لطفها الى تعليمي اضطرت مع نصح وارشاد زوجها ، ليس فقط للتوقف عن تعليمي ، ولكن وقفت ضد أن أتعلم عن طريق أي أحد آخر . . من حق سيدتي علي أن أقرر أنها لم تتبن هذه المعاملة على الفور . ففي البداية كان ينقصها وضاعة الأخلاق اللازمة لإبقائي في غياهب الظلام العقلي . كان ضرورياً لها على الأقل أن تتدرب على ممارسة القوة الغاشمة ، التي تناسب مهمة معاملتي كما لو كنت قاتلاً . .

كانت سيدتي كما قلت عنها امرأة ذات قلب رقيق طيب ، وفي بساطة روحها تلك بدأت ، حين ذهبت لأعيش معهم أول مرة ، تعاملني كما هو مفترض في التعامل بين كائنين انسانيين . إن من واجبات مالك العبد أن يعامل عبده كأنه مجرد متاع ، لكن لم يبد أنها مهتمة بهذا الواجب ، فبالنسبة اليها لم تكن معاملتي ككائن انساني خطأ أبداً ، ولا خطراً . كان الرق يؤلمها كما كان بالنسبة لي . حين ذهبت هناك كانت تقية ، دافئة ، ذات قلب رقيق ، ولم يكن هناك مظهر للألم أو المعاناة لا يثير دموعها . كانت تطعم

الجائع ، تكسو العاري ، تريح الحزين الذي يأتي اليها . لكن سرعان ما أثبتت العبودية قدرتها على تحويلها عن هذه الصفات السماوية ، وتحت تأثيرها أصبح القلب الرقيق حجراً ، والمظهر المشرق ترك مكانه لوحشية النمر .

كانت الخطوة الأولى في انحدارها توقفها عن تعليمي . وها هي قد بدأت في القيام بما أكد عليه زوجها . أصبحت أخيراً أكثر عنفاً في معارضتها لتعليمي من زوجها نفسه ، ولم تكن راضية بتنفيذ ما أمر به زوجها بشكل بسيط ، بل بدت مشتاقة لما هو أكثر . . .

لم يعد يغضبها شيء مثل رؤيتي ومعي جريدة . بدت كما لو كانت تفكر أنه هنا يربض الخطر . كانت تندفع نحوي بوجه ممتلىء غضباً وتخطف الصحيفة مني بطريقة تكشف تماماً عن مخاوفها . لقد كانت امرأة قابلة للتأثر ، وسرعان ما أوضحت الخبرة القليلة لها أن التعليم والعبودية لا ينطبقان .

منذ ذلك الوقت أصبحت تحت المراقبة الدقيقة . إذا ما بقيت في حجرة منفصلة وقتاً طويلاً إلى حد ما يصبح ذلك محل ريبة في أن يكون معي كتاب ، وفي الحال يتم استدعائي لأدافع عن نفسي .

لكن ذلك كله ، على أي حال ، كان متأخراً جداً ، فلقد اتخذتُ الخطوة الأولى . لقد أعطتني سيدتي بتعليمها الأبجدية لي بوصة ، ولا يوجد عمل يستطيع منعي من أجلها ذراعاً . .

كانت الخطة التي تبنيتها ، والتي نجحت فيها ، أن اتخذ اصدقاء لي من كل الأولاد البيض الصغار الذين أقابلهم في الشارع ، وأحول أكبر عدد أستطيعه منهم إلى معلمين . وبمساعدتهم البريئة ، نجحت في أوقات مختلفة ، وأماكن مختلفة ، في تعلم القراءة في النهاية . . . حينما كنت أرسل لأقضي بعض الحاجات ، كنت آخذ دائماً كتابي معي ، وأنهي مشواري بسرعة فأجد الوقت لأتلقى درساً قبل عودتي . اعتدت أيضاً أن أحمل معي

خبزاً كافياً مما كان متوفراً في المنزل ، وكنت بمساعدته محل ترحيب من كثير من الأطفال البيض الفقراء من جيراننا . اعتدت أن أعطيهم الخبز الذي في مقابله يعطوني خبزاً من المعرفة أكثر قيمة . . . انني أرغب بقوة أن أبوح بأسماء اثنين أو ثلاثة من أولئك الأولاد الصغار ، على سبيل الشهادة بالعرفان والحب الذي أحمله لهم ، لكن الحكمة تمنع . إن ذلك لن يؤذيني ، لكن قد يؤذيهم ، فمن غير المغفور تقريباً لأحد أن يعلم العبيد القراءة في هذا البلد المسيحي . . . يكفي أن أقول عن هؤلاء الصغار الأعزاء ، أنهم يعيشون في فيلبوت ستريت ، قريباً جداً من ترسانة دورجين وبيلي .

لقد اعتدت أن أتحدث عن الرق معهم . كثيراً ما أقول لهم إني أتمنى لو أصبحت حراً كما سيصبحون حين يصيرون رجالاً . « أنتم تصبحون أحراراً بمجرد بلوغكم الواحدة والعشرين ، لكني عبد مدى الحياة . أليس لي الحق في الحرية مثلكم . . . »

كانت هذه الكلمات تربكهم ، ويعبرون لي عن تعاطفهم الحي ، ويملأونني بالأمل بأن شيئاً ما سيحدث وأصبح حراً . .

إنني الآن في حوالى الثانية عشرة من عمري . وفكرة « عبد مدى الحياة » بدأت تزحف بثقل على قلبي . في هذا الوقت تقريباً وجدت كتاباً عنوانه « الخطيب الكولومبي » . في كل فرصة سنحت اعتدت قراءة هذا الكتاب . ومن بين أشياء أخرى كثيرة ممتعة وجدت فيه حواراً بين سيد وعبده . كان العبد متهماً بالهروب ثلاث مرات من سيده ، وجسد الحوار المحادثة التي جرت بينهما حين أعيد العبد في المرة الثالثة . في هذا الحوار قدم السيد كل أسس نظام الرق ، وكلها تخلص منها العبد . قال العبد أشياء جميلة ومؤثرة في اجابته على سيده . أشياء لها تأثير غير متوقع ، وانتهت المحادثة بتحرير العبد من قِبَل سيده .

في نفس الكتاب وجدت احدى خطب شيريدان القوية عن التحرر الكاثوليكي . قرأتها مرات ومرات بميل لا يقاوم . كانت الوثيقة المختارة

بالنسبة لي التي أعطت لساناً للأفكار المحببة إلى روحي ، والتي لمعت مراراً خلال عقلي ، وكانت قد ماتت لحاجتي الى النطق .

لقد كان المعنى الأخلاقي الذي خرجت به من الحوار بين السيد وعبده ، هو قوة الحق على الشعور حتى عند مالك العبيد ، وما خرجت به من شريدان كان انكاراً شجاعاً للعبودية وتزكية قوية للحقوق الإنسانية . لقد أعطتني قراءة هذه الصفحات القدرة على النطق بأفكاري ، وعلى أن أواجه المناقشات التي تدعم العبودية . لكنها وقد خلصتني من احدى الصعوبات ، أتت لي بأخرى أكثر إيلاماً من التي خلصتني منها ، فكلما تقدمت في القراءة ، كلما تقدمت في بغض وكره مستعبدي . لم أستطع أن أراهم في أية صورة غير أنهم حزمة من اللصوص النابحين الذين تركوا بلادهم وذهبوا إلى افريقيا ، وسرقونا من أوطاننا ، وفي بلاد غريبة أجبرونا على العبودية . تقززت منهم باعتبارهم أخس وأحط البشر . . .

وبينما قرأت وتأملت القضية تأكدت أن القنوط الكامل الذي أشار إليه السيد هوف بأنه سينتج من تعلمي القراءة قد أقبل فعلاً ليعذب ويقلّب روحي في نكد لا يوصف ، وبينما كنت أنوء تحته أحسست في نفس الوقت أن التعليم أعطاني رؤية لحالتي البائسة لكن دون شفاء . لقد فتح عيني على المستنقع المرعب لكن دون سلم أتسلقه لأخرج منه . وفي لحظات العذاب حسدت زملائي العبيد على غبائهم . كثيراً ما تمنيت لو كنت حشرة . فضلت ظروف أخس الزواحف عن ظروفي ، وتمنيت أن أكون أي شيء مهما كان للتخلص من التفكير . . . هذا التفكير في حالتي هو الذي عذبني ، ولم يكن هناك خلاص منه .

لقد كان يضغط علي في كل موضوع أراه أو أسمعه ، قريباً أو بعيداً . لقد أثار السهم الفضي للحرية في روحي يقظة خالدة . ظهرت الحرية ولن تختفي إلى الأبد . كنت أسمعها في كل صوت ، وأراها في كل شيء . كانت حاضرة جداً لتعذبني بالإحساس بظرفي البائس ، لم أر شيئاً دون رؤيتها . ولم أسمع شيئاً دون سماعها ولم أشعر بشيء دون الشعور

بها . بدت من خلال كل نجم ، ابتسمت في كل سكون ، تنفست في كل روح ، وتحركت في كل عاصفة . . غالباً ما وجدت نفسي آسفاً على وجودي وراغباً في موتي ولكن للأمل في الحرية لم أفكر في أنه يجب أن أقتل نفسي ، أو افعل شيئاً اقتل في سبيله . . . وبينما كنت في هذه الحالة من العقل، كنت مشتاقاً لسماع أي شخص يتحدث عن العبودية . كنت منصتاً جاهزاً ، وفي كل لحظة كنت أسمع شيئاً عن أنصار « الإلغاء » . كان ذلك قبل أن اكتشف معنى الكلمة ولقد كانت دائماً تستخدم في سياق يجعلها كلمة محببة لي . إذا هرب عبد ونجح ، أو إذا قتل عبد سيده ، أو أشعل النار في مخزن الغلال ، أو ارتكب أي فعل خاطىء في نظر مالكه ، كان الحديث يدور حوله كثمرة لدعوة « الإلغاء » .

مستمعاً إلى هذه الكلمة في هذا السياق دائماً قررت أن أتعلم معناها. قدم لي القاموس القليل ولم يساعدني . وجدت أنها « فعل الإلغاء » لكن لم أعرف ما هو الذي يجب الغاؤه . ارتبكت . لم أقدر على سؤال أي شخص عن معناها لاني كنت عارفاً بأنهم ارادوا لي ان اعرف القليل عنها ، وبعد انتظار صبور حصلت على احدى صحف مدينتنا . . وجدت أنها تحتوي على إحصاء بعدد القداسات المقامة من قبل سكان الشمال يصلون فيها من أجل « إلغاء الرق » في مقاطعة كولومبيا ، وتجارة الرقيق بين الولايات . منذ هذا الوقت فهمت معنى كلمة « إلغاء » والمطالبين « بالإلغاء » . وأصبحت دائماً حين تنطق هذه الكلمة اقترب متوقعاً أن أسمع شيئاً هاماً لي ولزملائي العبيد . سطع النور داخلي شيئاً فشيئاً. وذهبت يوماً إلى رصيف مستر ويترز، وحين رأيت اثنين من الايرلنديين يفرغان قارباً مشحوناً بالحجارة ، ذهبت دون أن يسألني أحد لمساعدتها. بعد أن انتهينا أقبل أحدهما نحوي وسألني ما إذا كنت عبداً . أجبت بأنني كذلك . سألني هل أنت عبد مدى الحياة ؟! أجبت إنني كذلك . وبدأ الإيرلندي الطيب متأثراً بعمق . قال للآخر بأنه من المؤسف أن شاباً صغيراً جميلاً مثلي يكون عبداً لمدى الحياة . ثم قال إنه من العار أن يملكني أحد .

ونصحاني بالهرب إلى الشمال حيث سأجد هناك أصدقاء ، وحيث أصبح حراً. تظاهرت بأني لم أتأثر بما قالا ، وعاملتهما كما لو لم أفهمهما حيث خفت أن يغدرا بي . . لقد عُرف عن الرجال البيض أنهم يشجعون العبيد على الهرب ثم يقبضون هم أنفسهم عليهم ، ويعيدونهم إلى أسيادهم ليحصلوا على المكافأة . . خفت أن يفعل بي ذلك هذان الرجلان ذوي المظهر الطيب . لكني لم أنس نصيحتهما ، ومنذ ذلك الوقت خططت للهرب . . تطلعت لوقت يكون آمناً لي فأهرب . كنت أصغر من أن أفكر في إنجاز ذلك على الفور، إلى جانب أني رغبت في تعلم كيف أكتب ، ذلك يعطيني الفرصة لأكتب « تصريحي » الخاص .

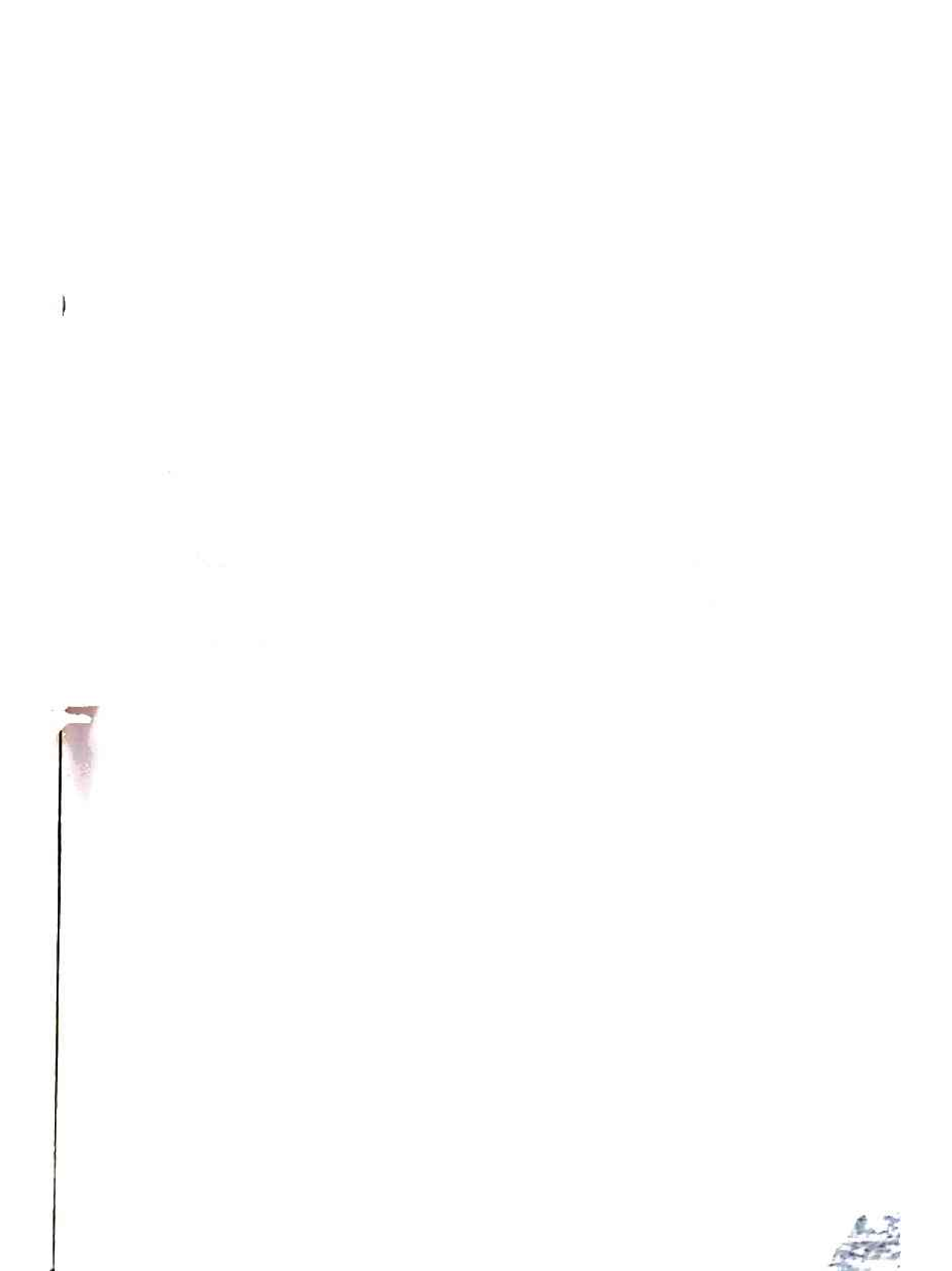
وملأت نفسي بالأمل في أني يوماً ما سأجد فرصة طيبة ، وفي نفس الوقت كنت أتعلم الكتابة . . .

لقد أتتني فكرة ضرورة تعلم الكتابة حين كنت أرى بشكل دائم نجاري السفن في ترسانة دورجين وبيلي ، وهم يكتبون على قطع الخشب التي ينشرونها ، اسم جزء السفينة التي ستستخدم فيه . كانوا يضعون علامة « ش » التي تعني « شمال » على لوح الخشب الخاص بالجانب الأيسر من السفينة . وعلامة « ي » التي تعني « يمين » على لوح الخشب الخاص بالجانب الأيمن . وعلى اللوح الذي سيستخدم في الجانب الأيسر من الأمام يضعون علامة « ش أ » التي تعني شمال من الأمام وكذلك « ي أ » لليمين من الأمام ، وللمؤخرة من الناحية اليسرى يضعون علامة « ش م »وللمؤخرة من الناحية اليمنى يضعون علامة « ي م » . سرعان ما تعلمت ما ترمز إليه هذه الحروف وماذا ينوي النجارون حين يرصون ألواح الخشب في الترسانة . على الفور بدأت في نسخها ، وفي وقت قصير كنت قادراً على كتابة الحروف الأربعة . . وكنت بعد ذلك حين أقابل أي صبي أعرف أنه يستطيع الكتابة أخبره أني أستطيع أن أكتب مثله فيقول : « لا أصدقك دعني أراك تفعل ذلك » فاكتب حينئذ الحروف التي كنت محظوظاً جداً

بتعلمها وأساله أن يتفوق علي . وبهذه الطريقة تلقيت دروساً طيبة في الكتابة لم يكن ممكناً ابداً أن أحصل عليها بطريقة أخرى .

خلال هـذا الوقت ، كانت كراستي هي الأسوار والحوائط والأرصفة ، وكان قلمي ومدادي مجموعة من قطع الطبـاشير . وبهـذه ! تعلمت بشكل رئيسي كيف أكتب . ثم بـدأت نسخ الحـروف المـائلة من كتـاب ويبستر للتهجي حتى استطعت نسخها كلها دون النظر في الكتاب . في ذلك الوقت ذهب سيدي الصغير توماس إلى المدرسة ، وتعلم كيف يكتب ، وكتب عدداً من الكراسات التي كان يأتي بها إلى المنزل ، وكانت تعرض على بعض من جيراننا الأقربين ، ثم تترك جانبـاً . وكانت سيـدتي قد اعتـادت الذهـاب لـدرس في الكنيسة في « ويلك ستـريت » عصر كل يـوم اثنين وتتـركني في البيت . حينئـذ كنت أمضي الوقت أكتب في الأمـاكن الخاليـة من كراسـة سيدي توماس ناسخاً ما كان قد كتبه هو .

واصلت ذلك حتى استطعت الكتابة وتحسن خطي ليشبه كثيـراً خط سيدي توماس . وهكذا بعد جهد طويل شاق استمر لسنوات نجحت أخيراً في تعلم كيف أكتب . . .



الفصل الثامن

بعد وقت قصير من ذهابي للعيش في بالتيمور ، مات ريتشارد الابن الأصغر لسيدي القديم ، وبعد موته بحوالى ثلاثة أعوام ونصف ، مات سيدي القديم ، كابتن أنطوني ، تاركاً ابنه أندرو وابنته لوكريشيا ليقتسما مزرعته . لقد مات سيدي القديم خلال زيارة لابنته في هيلسبورو . ولأن ذلك حدث فجأة لم يترك أية وصية لترتيب أملاكه ، لذلك كان من الضروري تقييم الممتلكات التي سوف يتم تقسيمها بين مسز لوكريشيا والسيد أندرو .

على الفور تم ارسالي ليتم تثميني مع الممتلكات . وهنا مرة أخرى ثارت مشاعري كراهية للرق ، وأصبحت لدي الآن صورة جديدة لوضعي المنحط . من قبل ، ربما لم أكن عديم الاحساس تماماً بقدري ، ولكني كنت هكذا إلى حد ما .

غادرت بالتيمور بقلب صغير مقهور بالحزن ، وروح مليئة بالتخوف . أخذت طريقي مع الكابتن رودي في السفينة « وايلدكات » ، وبعد حوالى أربع وعشرين ساعة من الإبحار ، وجدت نفسي بالقرب من مكان مولدي . الآن أصبحت غائباً عنه تقريباً ، وربما بالضبط ، خمس سنوات . ورغم ذلك تذكرت المكان جيداً .

كنت في حوالى الخامسة حين فارقته للعيش مع سيدي القديم في

ضيعة الكولونيل اللويد ، ومن ثم فأنا الآن بين العاشرة والحادية عشرة من عمري . .

تم ترتيبنا جميعاً في عملية التقييم ، رجالاً ونساء ، كباراً وشباباً ، متزوجين وعزاباً وذلك مع الخيل والأغنام والخنازير . كان هناك خيول ورجال ، أبقار ونساء وخنازير وأطفال ، والجميع يتمتعون بنفس مستوى الوجود ، وخضع الجميع لنفس الفحص الدقيق . أصحاب الرؤوس الفضية من الكهول، والشباب النشط ، الخادمات والمتزوجات ، خضعوا جميعاً لنفس الفحص الخشن الذي خضعت له الحيوانات . في هذه اللحظة رأيت بوضوح أكثر من أي وقت ، الآثار المدمرة للرق على كل من العبد ومالكه .

بعد التقييم جاء التقسيم . وليس لدي اللغة التي أعبر بها عن التوتر الفائق ، أو القلق العميق ، الذي أحسسناه نحن العبيد البائسين خلال ذلك الوقت . مصيرنا في الحياة يُقرر أمامنا الآن ، وليس لنا في هذا القرار أكثر من صوت البهائم التي بينها تم ترتيبنا . كانت كلمة واحدة من الرجال البيض كافية ـ ضد كل رغباتنا ، صلواتنا ، وتوسلاتنا ـ لتودي إلى الأبد بأعز الأصدقاء ، وأحب الأقارب ، وأقوى الروابط التي عرفها بنو الانسان .

وبالإضافة إلى آلام الانفعال ، كان هناك الرعب المهول من السقوط في يد السيد أندرو . لقد كان معروفاً لنا جميعاً بأنه البائس القاسي، السكير الذي بسوء إدارته ورعونتها ، وتهتكه الفاسق ، أضاع جزءاً كبيراً من أملاك والده . أحسسنا جميعاً بأننا سنباع في الحال إلى تجار ولاية جورجيا إذا وقعنا في يده . هذا هو المصير المحتوم لكل من يقع في يده . وكنا جميعاً في اقسى رعب وخوف .

لقد عانيت من القلق اكثر من معظم رفاقي العبيد ، ذلك أني عرفت ما هي المعاملة الطيبة ، بينما هم لم يعرفوا شيئاً عن الطيبة . لقد شاهدوا

قليلاً ، وربما لا شيء من العالم . لقد كانوا حقاً رجال ونساء الحزن العميق الذين اكتسوا بـالألم . ظهورهم متشـابهة من الجلد الدمـوي بينما نـادراً ما جلدت في بالتيمور . قلّ من العبيد من يستطيع التفـاخر بسيـد أطيب من سيدي أو سيدة أطيب من سيدتي . لذلك كانت فكرة الانتقال من أيديهم إلى يدي السيد أندرو ، الرجل الذي منذ أيام قليلة أظهر لي بينة على طبعه الدموي حين أمسك بأخي الصغير من عنقه ، وألقى به فوق الأرض ، ثم ضرب بكعب حذائه رأسه ، حتى تفجر الدم من أنف أخي وأذنيه . . أقول إن فكرة الانتقال هذه ، كانت تقلقني على مصيري . لقد استدار لي السيد أندرو بعد أن أنجز هجومه الوحشي على أخي وقال إن هذه هي الطريقة التي سيعاملني بها يوماً ما ، وكان يقصد اليوم الذي أصبح فيه ملكاً لـه . لكن شكراً للعناية الالهية لقد أصبحت من نصيب مســز لوكريشيـا، وأرسلت على الفور إلى بالتيمور لأعيش من جديد بين عائلة السيـد هوف . كـانت سعادتهم بعودتي مساوية لأسفهم عند رحيلي ، وكـان يومـاً ساراً لي ، لقـد نجوت مما هو أسوأ من مخالب الأسد . ولقد غبت عن بالتيمور بسبب عملية التقييم هذه حوالى شهر تقريباً ، لكنه بدا لي ستة أشهر .

حـالاً بعد عـودتي ماتت سيـدتي لوكـريشيا مخلفـة زوجها وطفلة هي « أماندا » وسرعان ما لحق بها السيد أندرو .

الآن أصبحت كل تركة سيدي القديم شاملة العبيد في أيدي الغرباء الذين لم يكن لديهم شيء يفعلونه لتجميعها . لم يعطوا الحرية لعبد واحد . ظل الجميع عبيداً من الكبار والصغار . وإذا كان هنـاك في خبرتي شيء ، يساعد أكثر من غيره في تعميق اعتقادي ياهوية الجهنميـة للرق ، وليملأني بالبغض الذي لا يمكن التعبير عنه لملاك العبيد ، فقد كان هـذا الشيء هو جحـودهم المبدئي لجـدتي العجوز البـائسة . لقـد خدمت سيـدي القـديم باخلاص منذ شبابها إلى مشيبها . كانت مصدر كل ثروته . ملأت ضيعته بالعبيد وأصبحت جدة عظيمةلأطفال العبيد . بل لقد هدهدته في طفـولته ورعته وخدمته طوال الحياة ، وعند موته مسحت عن رموشه برودة الموت ،

وأغلقت عينيه إلى الأبد . رغم ذلك تُركت عبدة ـ عبدة إلى الأبد في أيدي الغرباء . وفي أيديهم رأت أطفالها وأحفادها وأحفاد أحفادها يقسمون مثل الأغنام دون فرصة لهم في تقرير مصائرهم . وحتى يصل الغرباء إلى قمة جحودهم البشع ، وبربريتهم المتوحشة ، وجدوا في جدتي قيمة قليلة . إنها الآن عجوز جداً . لقد رعت حياة سيدي القديم وكل أطفاله ، ورأت بدايتهم ونهايتهم جميعاً ، على مظهرها تبدو آلام الشيخوخة وعجز أطرافها . وهكذا نقلوها إلى الغابات حيث بنوا لها كوخاً صغيراً وتركوها وحدها تواجه الموت ، لو كانت جدتي العجوز البائسة حية الآن ، لا بد أنها في وحدة قاسية تتذكر وتتعذب على فقد الأطفال وفقد الأحفاد ، وفقد أحفاد الأحفاد ، الذين بلغة « ويتييه » شاعر العبيد(*) :

« ذهبوا ، ذهبوا ، بيعوا وذهبوا »
« إلى مستنقع الأرز البارد الموحش »
« حيث جلد العبيد يصفر بلا توقف »
« وحيث تلدغ الحشرة المؤذية »
« وحيث يبذر شيطان الحمى السم »
« مع قطرات الندى الساقط »
« وحيث يتوهج شعاع الشمس المريض »
« عبر الهواء الحار والمشبع بالضباب »
« ذهبوا ، ذهبوا ، بيعوا وذهبوا »
« إلى مستنقع الأرز البارد الموحش من »
« تلال فرجينا وأنهارها »
« واحسرتاه على بناتي المسروقات . . . . . . »

خراب هو البيت . . والأطفال ، الأطفال الأبرياء الذين عنوا ورقصوا في حضورها ذهبوا . انها تتحسس طريقها في ظلام العمر من أجل

(*) ويتييه شاعر امريكي ابيض عاش ما بين عامي ١٨٠٧ ـ ١٨٩٢ وهو ينتمي إلى جماعة الكويكرز وهي جماعة دينية ممتدة حتى الآن لها مواقف ايجابية من قضايا الحرية .

شربة ماء . وبدلاً من أصوات أطفالها ، تسمع طول النهار صياح الطير البري ، وفي الليل نعيق البوم الوحشي . كل شيء مظلم ، والقبر عند الباب . والآن ، الآن حيث تنهار تحت تأثير آلام وضعف الشيخوخة ، حين تتعلق الرأس بالأقدام ، وتتقابل بداية ونهاية الوجود الانساني ، ويلتحم العجز وتقدم العمر معاً ، في هذا الوقت الذي هو أكثر الأوقات احتياجاً ، وقت الحدب والتعاطف الذي يمكن للأطفال فقط تقديمهما لأمهم الزائلة ، فإن جدتي العجوز البائسة ، الأم المكرسة دائماً لاثني عشر طفلاً ، تُترك وحيدة في كوخ صغير أمام قليل من بقايا نار خامدة . انها تقف . تجلس . تترنح . تسقط تتحشرج . تموت . ولا أحد من أطفالها أو أحفادها موجود ليمسح ، عن رموشها المتشنجة برودة الموت ، أو يواري بين العشب بقاياها . ألا يرى الرب الحق هذه الأشياء ؟ .

بعد حوالى عامين من موت مسز لوكريشيا تزوج السيد توماس زوجته الثانية . كان اسمها رونيا هاملتون وهي أكبر بنات مستر وليام هاملتون . يعيش سيدي الآن في مزرعة سانت ميشيل . وبعد زواجه بقليل وقع سوء تفاهم بينه وبين السيد هوف ، ولمعاقبة أخيه أخذني منه لأعيش معه في مزرعة سانت ميشيل . هنا عانيت ألماً آخر للانفصال ، لكنه على كل حال لم يكن في قسوة خوفي أول مرة عند تقسيم التركة . ذلك أنه خلال هذا الوقت جرى تغير كبير في السيد هوف وزوجته التي كانت طيبة وعطوفة . لقد ترك « البراندي » تأثيره عليه كما طبعت العبودية أثرها المدمر على شخصية زوجته ، وهذا ما جعلني أعتقد أن لدي القليل لأخسره بفراقهما . الحقيقة لم يكن انجذابي لهما بقدر ما كان للأولاد في بالتيسور الذين تلقيت دروساً عديدة منهم وما زلت ، وكانت فكرة تركهم مؤلمة حقاً . أصبحت أعيش بعد انتقالي دون أمل في السماح لي بالعودة إلى بالتيمور . لقد قال السيد توماس إنه لن يتركني أعود أبداً وأن الحاجز الذي صار بينه وبين أخيه لا يمكن عبوره . حينئذ شعرت بالأسف لأنني لم أحاول أن أنفذ قراري بالهرب . كانت فرصة النجاح في المدينة أعظم منها في الريف . .

لقد أبحرت من بالتيمور إلى سانت ميشيل على ظهر الباخرة « آمندا » التي كان يقودها الكابتن «ادوارد دودسون». وفي الطريق أبديت اهتماماً خاصاً بالاتجاه الذي تأخذه البواخر في السفر إلى فيلادلفيا . وجدت أنهم بدلاً من الذهاب جنوباً للوصول إلى « نورث بونيت » يدفعون البواخر في اتجاه الشمال الشرقي . حفظت هذه المعلومة ذات الأهمية العظمى . لقد استيقظ تصميمي على الهرب مرة ثانية وقررت انتظار الفرصة المناسبة فقط لأغتنمها . . .

الفصل التاسع

بلغت الآن مرحلة من حياتي أستطيع فيها إدراك التواريخ . لقد غادرت بالتيمور للعيش مع السيد توماس أولد في سانت ميشيل ، في شهر مارس من عام ١٨٣٢ ، أكثر من سبع سنوات مضت الآن على حياتي الأولى معه بين عائلة سيدي القديم في ضيعة الكولونيل اللويد . الآن ، نحن تقريباً غريبان تماماً بالنسبة لبعضنا . لقد أصبح بالنسبة لي سيداً جديداً ، كما أصبحت بالنسبة له عبداً جديداً أيضاً . أجهل أنا مزاجه وميوله ، وهو كذلك يجهل مزاجي وميولي . لكن ما كاد وقت قصير يمضي حتى صار كلانا عارفاً بالآخر . وعرفت أيضاً زوجته معرفتي لنفسي . ولقد كانا ، هو وزوجته ، متطابقين تماماً في الخسة والقسوة .

الآن ، بعد فترة تزيد عن سبع سنوات ، أصبحت أحس لأول مرة بالجوع المؤلم ، وهو ما لم أختبره من قبل منذ غادرت ضيعة الكولونيل اللويد . أصبح قاسياً على نفسي أن أنظر خلفي فلا أرى في ماضي أية فترة وجدت فيها كفايتي من المتعة . وأصبح أكثر صعوبة أن أعيش مع السيد توماس أولد بعد حياتي بين عائلة السيد هوف حيث كنت دائماً أجد ما يكفي من الطعام الطيب .

لقد قلت إن السيد توماس كان رجلاً خسيساً ، ولكن عدم اعطاء العبد طعاماً كافياً كان يعتبر أكثر الأفعال خسة بين مالكي العبيد . القاعدة

هي أنه « ليس مهماً خشونة الطعام ، لكن دعه كافياً » . كانت هذه النظرية ، وكان هذا أيضاً هو العمل السائد في المنطقة التي أتيت منها بولاية ميريلاند ، رغم وجود استثناءات عديدة . لكن هنا لم يعطنا السيد توماس ما يكفي ، لا من الطعام الجيد ، ولا من الطعام الخشن . كان هناك أربعة عبيد في المطبخ ، أختي ليزا ، خالتي بريسيليا ، هيني ، وأنا . وكان يقدم الينا أقل من نصف بُشل من الذرة في الأسبوع ، وأقل القليل من اللحوم والخضر . لم يكن ذلك كافياً للاستمرار في الحياة ، لذلك حاولنا الحصول على ما يقيم حياتنا من جيراننا . وكان ذلك بالشحادة أو سرقة ما تطوله اليد وقت الحاجة . أصبح كلاهما ـ الشحادة والسرقة ـ مشروعاً . كم من المرات كنا نحن المخلوقات البائسة نكاد نحتضر من فرط الجوع . ويحدث هذا بينما يستقر الطعام متكوماً بوفرة في المنزل الآمن ذي المداخن . لقد كانت سيدتنا التقية تعلم بالحقيقة ، ورغم ذلك كان بمستطاعها السجود كل صباح ، والصلاة للرب أن يبارك لهم في الغلال والسلال . .

كل مالكي العبيد أهل سوء . نادراً ما قابلنا واحداً يحمل صفة تستحق الاحترام، ولم يكن سيدي مختلفاً، إذ لم أعرف له عملاً واحداً يدل على النبل . السمة القائدة لشخصيته هي الخسة ، وكل سمات شخصيته الأخرى لها علاقة بهذه السمة . كان خسيساً ومثل كل الأخساء ، يفتقد القدرة على الكشف عن خسته . انه لم يولد كمالك للعبيد ، بل كان فقيراً يقود سفينة في الخليج . وأصبح مالكاً لكل عبيده بعد زواجه من زوجة غنية ، ومن بين كل ملاك العبيد كان أسوأهم . كان قاسياً لكن جباناً . يأمر ولكن مهتزاً . ولكي يقوي من نفسه أمامنا كان يبدو ثابتاً في وقت متزعزعاً في آخر . . حينا يحدثنا بعزيمة نابليون وغضب الشيطان ، وحيناً يبدو كالمخطىء الذي ضل طريقه . تحسبه خطأ اسداً لكنه مجرد أذنين ! . في كل الأشياء النبيلة التي حاولها كان بادي الخسة . أنفاسه ، كلماته ، وأفعاله ، يجاهد ليجعلها أنفاس وكلمات وأفعال مالك عبيد أصلي . لكنها وهي المنتحلة ، تبدو غليظة سمجة بدرجة كافية ـ كان لديه كل نزوع

طبيعي إلى الخداع ولكن يفتقد إلى القوة . ولأنه لا يمتلك في دخيلة نفسه ، اي أساس للقوة ، كان مضطراً لتقليد غيره . وهكذا كان ضحية للتقلب الدائم ، وموضوعاً للاحتقار حتى بين عبيده . كان شيئاً جديداً لم يستعد له أن يعيش أبهة امتلاك العبيد الخاضعين . كان بحق مالك عبيد دون القدرة على ذلك . لقد كان عاجزاً عن إدارة العبيد سواء بالقوة أو بالتخويف أو بالاحتيال ، لذلك نادراً ما ناديناه « بالسيد » . كنا نناديه « بكابتن أولد » ، وكان من الصعب أن يحظى بلقب بيننا . ولا أشك في أن ذلك كان له علاقة كبيرة بغيظه وتبرمه ، وأن عدم احترامنا له كان يربكه بشكل كبير . لقد كان يرغب حقاً في أن نناديه « بالسيد » لكن ينقصه الحزم اللازم ليأمرنا بأن نفعل ذلك . ولقد اعتادت زوجته أن تحتج على مناداتنا له « بالكابتن » لكن دون جدوى .

في أغسطس عام ١٨٣٢ حضر سيدي لقاء دينياً على شاطىء الخليج في مقاطعة تالبوت . تعلقت بأمل ضعيف في أن اهتداءه إلى الإيمان قد يقوده إلى عتق عبيده ، وإذا لم يفعل ذلك فلا بد ستقوده الهداية إلى أن يكون أكثر خيراً وإنسانية ، لكن خاب أملي في الناحيتين . ذلك اللقاء لم يجعله انسانياً مع عبيده . . . ولا جعله يعتقهم . . وإذا كان من أثر لذلك على شخصيته ، فقد كان العكس ، إذ صار أكثر قسوة وكراهية . وهكذا صار بعد الهداية أسوأ مما كان قبلها .كان قبل الهداية يعوّل على تسفُّل أخلاقه ليستره ويقويه في أفعاله البربرية . بعد الهداية وجد دعماً ومسوغاً دينياً لقسوته كمالك عبيد . لقد كرس نفسه لأعظم المظاهر الدينية. أصبح منزله منزلاً للصلاة . يصلي في الصبح والظهيرة والمساء . وسرعان ما تميز بين الناس وأصبح إماماً وواعظاً ، وكرس نفسه لخدمة الكنيسة من أجل هداية الأرواح الضالة . صار بيته لقاء للوعاظ الذين يسعدون بالحضور إليه . وبينما كان يجوعنا كان يحشوهم بالطعام . أصبح ثلاثة أو أربعة من الوعاظ يترددون عليه معاً . وكان الذين يترددون بشكل دائم يحملون أسماء مستر ستوركس ، مستر إيوري ، مستر همفري ، ومستر هبكي . رأيت أيضاً

بينهم مستر جورج كوكمان . .

كنا نحن العبيد نحب مستر كوكمان . ونعتقد أنه رجل خير ، وأنه هو الذي حث مستر صامويل هاريسون ، مالك العبيد الغني ، على عتق عبيده . كان لدينا درجات مختلفة من الانطباع بأنه يعمل من أجل تحرير كل العبيد ، وحين كان يحضر إلى المنزل تتم دعوتنا إلى الصلاة ، بينما لا تتم دعوتنا في كل الأحيان حين يأتي الآخرون . لقد كنا ننتظر مستر كوكمان أكثرمن غيره ، ولم يكن يصل بيننا دون أن يفشي بعاطفته نحونا . وبسذاجتنا الطبيعية ، كانت لدينا الفطنة لنرى هذه العاطفة .

في الوقت الذي عشت فيه مع سيدي في مزرعة سانت ميشيل اقترح شاب أبيض هو مستر ويلسون ، أن يذهب بعض العبيد إلى درس الأحد بالكنيسة لتعلم قراءة العهد الجديد . ذهبنا ثلاث مرات فقط . وفي الأخيرة منها طُردنا ، هاجمنا كل من مستر فيربانكس ومستر ويست الواعظان بالكنيسة ، واشترك معهم الكثيرون من الحاضرين ، وضربونا بالهراوات والقذائف ، ونهونا عن الحضور مرة ثانية ، وكانت هذه هي النهاية الأليمة والسريعة « لمدرسة أحدنا » الصغيرة في البلدة التقية بسانت ميشيل .

لقد قلت أن سيدي قد وجد مسوّغاً دينياً لقسوته . ومثالاً على ذلك سأسوق واحدة من كثير من الحقائق التي تبرهن صحة هذا الاتهام .

لقد رأيته يقيد فتاة عرجاء ويجلدها بالسوط الثقيل على كتفيها العاريتين حتى نزف دمها الأحمر الساخن . وتبريراً لفعلته الدموية استشهد بهذه الفقرة من الكتاب المقدس « سوف يقاسي الجلد كثيراً ذلك الذي يعرف إرادة سيده ولا ينصاع لها » . وترك سيدي المرأة النازفة مقيدة في هذه الحالة المرعبة لخمس ساعات . لقد كان يجلدها في الصباح الباكر ، وقبل الإفطار ثم يتركها ويذهب إلى مستودع الغلال ، وحين يعود في الظهيرة يجلدها من جديد ممزقاً لحمها في كل مكان يصل إليه سوطه الحاد .

إن سرّ قوة سيدي ازاء « هيني » يكمن في حقيقة أنها تقريباً عاجزة .

لقد سقطت وهي طفلة في النار فاحترقت بشكل مرعب . احترقت يداها إلى درجة أنها لم تستطع استعمالها فيما بعد . كانت تستطيع القيام بأعمال صغيرة ولكن بمشقة بالغة ، ومن ثم كانت بالنسبة لسيدي شيئاً مكلفاً . ولأنه رجل خسيس كانت محل اساءة دائمة منه . كانت لديه رغبة قوية في التخلص من وجود هذه الفتاة البائسة . أرسلها مرة إلى أخته التي رأت فيها هدية فقيرة فلم تمل إلى الاحتفاظ بها . وأخيراً فإن سيدي ، المحب للخير ، وبنفس كلماته « تركها تهيم لتعنى بنفسها » . هنا رجل حديث الهداية، يتمسح بالعذراء ، ويترك في نفس الوقت طفلتها العاجزة تقاسي الجوع والموت ، لقد كان السيد توماس واحداً من كثير من ملاك العبيد التقاة الذين يملكون العبيد بهدف التصدق بالعناية بهم . . . ! .

لقد كنت وسيدي مختلفين كثيراً . . وجدني غير مناسب لغرضه ، وقال إن حياتي في المدينة أتلفتني وخربتني تماماً ، وجعلتني مناسباً لكل ما هو شر . وكان أحد أخطائي الكبرى أني أجعل حصانه يهرب إلى مزرعة حميه التي تبعد بنحو خمسة أميال من مزرعة سانت ميشيل . ولم يعرف أن سبب هذا القصور من ناحيتي هو رغبتي في الحصول على شيء من الطعام . لقد كان علي أن أذهب في أثر الفرس . وهناك ، فإن السيد وليام هاملتون حما سيدي يقدم دائماً طعاماً كافياً لعبيده ، ولم أكن أغادر مزرعته جائعاً قط ، ولم أكن أضع العودة بسرعة في اعتباري . لقد قال السيد توماس في النهاية إنه لن يسمح بأن يتكرر هذا الخطأ . وعشت معه بعد ذلك تسعة أشهر جلدني خلالها بقسوة أكثر من مرة . وفي كل مرة لم يكن هناك سبب هام يدعو للجلد . ثم قرر أن يطردني من المزرعة لترويضي كما قال . ولهذا الهدف وضعني لحوالى عام في خدمة رجل يدعى ادوارد كوفاي .

كان مستر كوفاي رجلاً فقيراً يستأجر مزرعته ، ويستأجر المكان الذي يعيش فيه . والأيدي التي تعمل عنده . لقد اكتسب مستر كوفاي سمعة كبيرة كمروض للعبيد الصغار . وكانت هذه السمعة بذاتها ذات قيمة ضخمة بالنسبة له . لقد مكنته من ملء مزرعته بالعبيد بأقل التكاليف .

لقد آمن بعض ملاك العبيد بأنه ليس من الخسارة الكبيرة أن يقدموا عبيدهم لمستر كوفاي لمدة عام لتدريبهم على ما سيضطلعون بـه من أعمال دون أن يدفع شيئاً لهم . وهكذا ، وبسبب سمعته فقط ، كان مستر كوفاي يحصل على الأيدي العاملة بسهولة شديدة . ولأن مستر كوفاي عُرف أيضاً كرجل دين ورع ، وعضو في الكنيسة الميثودية ، فقـد أضاف هـذا وزناً لسمعتـه كمروض للزنوج .

لقد عرفت كل هذه الحقائق عن طريق شاب سبق له العيش هناك . ورغم ذلك اعتبرت التغيير شيئاً ساراً لأني تأكدت من امكانية حصولي على طعام كاف لدى مستر كوفاي ، ولم يكن ذلك بالشيء الهين بالنسبة لشخص جائع .

الفصل العاشر

تركت منزل السيد توماس وذهبت للعيش مع مستر كوفاي في أول يناير عام ١٨٣٣ . أصبحت ولأول مرة في حياتي ، عاملاً في الحقول . وفي عملي الجديد وجدت نفسي أكثر ارتباكاً من قروي وجد نفسه فجأة في مدينة كبيرة . وبعد أسبوع واحد من وصولي جلدني مستر كوفاي بقسوة شديدة ممزقاً ظهري منزفاً دمي محدثاً ندوباً في لحمي وحفراً تكفي كل منها لإخفاء أصبعي الصغير . وكانت تفاصيل ذلك كالآتي :

أرسلني مستر كوفاي في الصباح الباكر جداً لأحد أيام يناير القارسة البرد إلى الغابة لآتي بحمل من الحطب . أعطاني عربة صغيرة يجرها ثوران أحدهما غير ذلول . هكذا أخبرني وهو يربط طرف الحبل الطويل حول قرني الثور الذلول ، ويعطيني الطرف الثاني . قال لي أن لا أنسى أن أمسك الحبل جيداً إذا ما أسرع الثوران في الجري . لم يكن قد سبق لي أن سقت ثيراناً من قبل ولذلك كنت مرتبكاً جداً . . وبرغم ذلك نجحت في الوصول إلى حافة الغابة بسهولة . لكني واجهت دغلاً متشابكاً من الأشجار مما أفزع الثورين فانتفضا دافعين بالعربة في اتجاه مضاد ثم جعلا يركضان ويدوسان فوق بقايا الأشجار في أكثر الأماكن وعورة ، وفي كل لحظة توقعت أن يتهشم رأسي . ظل الحال على ذلك لمسافة طويلة انقلبت فيها العربة في النهاية واصطدمت بقوة بشجرة ضخمة ، وقفز الثوران إلى دغل كثيف .

كيف نجوت من الموت ؟ لا أدري . وجدت نفسي وحيداً تماماً في غابة كثيفة في مكان لم آلفه ، وقد انقلبت عربتي وتحطمت ، وتورطت ثيراني بين الأشجار الصغيرة المتشابكة ولا أحد ليساعدني . لكن بعد جهد خارق نجحت في إقامة العربة ، وتخليص الثورين ، وإعادة ربطهما إليها ، وبدأت مع فريقي هذا في السير إلى المكان الذي كنت أقطع فيه الأشجار أمس . حملت عربتي بحمل ثقيل معتقداً أني بهذه الطريقة سأكبح الثورين ، وأخذت طريقي إلى البيت . مضى علي نصف يوم ، حتى وصلت أخيراً إلى بوابة الخروج من الغابة سليماً ، وأصبحت بعيداً عن الخطر . أوقفت الثورين لأفتح البوابة ، وبينما أفعل ذلك ، وقبل أن أمسك بحبل الثور ، هاج الثوران من جديد ، واندفعا نحو البوابة فسقطت ، وتحطمت تحت عجلات العربة التي كادت أيضاً تحطمني وأنا محشور بينها وبين مصراع البوابة . وهكذا مرتين في يوم قصير نجوت من الموت بالصدفة المحضة .

بعد عودتي إلى المزرعة أخبرت مستر كوفاي بما جرى وكيف حدث . أمرني بالعودة إلى الغابة فوراً . فعلت وجاء في أثري . وما كدت أدخل إلى الغابة حتى أخبرني أن أوقف عربتي لأنه سيعلمني كيف أضيع الوقت وأكسر البوابات . ثم اتجه إلى شجرة صمغ ضخمة وقطع بالبلطة ثلاثة أفرع جعل يشذبها بسكينة ثم أمرني أن أخلع ثيابي . لم أستجب له . أعاد الأمر فلم أستجب ولم أتحرك . عند ذلك اندفع نحوي بشراسة نمر ومزق ثيابي وجلدني حتى تمزقت فروع الشجرة ، وتمزق قبلها لحمي بوحشية ظلت آثارها باقية لفترة طويلة . كانت هذه هي المرة الأولى التي يجلدني فيها وقد تكرر ذلك بطريقة متشابهة ولأسباب متشابهة أيضاً .

لقد عشت عاماً مع مستر كوفاي نادراً ما مر أسبوع خلال الأشهر الستة الأولى منه دون أن يجلدني ، ونادراً ما شفيت من الآلام في ظهري . كان ارتباكي دائماً هو سبب جلده لي . لقد كنا نعمل بأقصى درجات المشقة . نستيقظ قبل بزوغ الشمس بكثير ، نطعم الخيل ، ونندفع مع بداية النهار إلى الحقل نحرث ونعزق . لقد كان مستر كوفاي يعطينا ما يكفي حقاً من الطعام ، لكن نادراً ما كنا نجد الوقت لنأكل . لم يسمح لنا بأكثر من

خمس دقائق لذلك . نظل في الحقل منذ الصباح الباكر حتى تغيب آخر اشعة الشمس . وفي أيام جمع العليقة غالباً ينتصف الليل علينا ونحن نحزم الحزم . ويكون مستر كوفاي معنا دائماً . إنه ينام بعض الوقت بعد الغداء ثم يخرج منتعشاً جاهزاً لحثنا على العمل بالكلام أو بالسوط .

لقد كان مستر كوفاي أحد ملاك العبيد القلائل الذين يعملون بأيديهم ، وكان مجتهداً في العمل ، يعرف بنفسه ما على كل شخص ، كبيراً كان أم صغيراً ، من واجب . ولم يكن خداعه ممكناً ، فالعمل يجري في غيابه كما في حضوره ، إذ أن لديه ملكة أن يجعلنا نشعر بوجوده بيننا دائماً . . وطريقته في ذلك أن يفاجئنا ، فهو نادراً ما يقترب من موقع العمل بشكل مكشوف طالما يستطيع ذلك خفية . كان هدفه دائماً أن يأخذنا بالمفاجأة ، ولقد اعتدنا أن نسميه فيما بيننا بالثعبان . حين نكون في حقل الذرة يأتي زاحفاً على يديه وركبتيه ثم يظهر مباشرة بالقرب منا ويزعق « . . ها . . ها . . ها ! اشتغل اشتغل ! » كانت هذه هي طريقته في الهجوم ، ومن ثم لم يكن التوقف عن العمل دقيقة واحدة آمناً . كان مثل لص في الليل ، يبدو لنا كما لو كان دائماً بالقرب منا ، تحت كل شجرة ، وخلف كل جذع ، وفي كل دغلة ، ووراء كل نافذة ، أحياناً يلوي فرسه كما لو كان متجهاً إلى المزرعة في سانت ميشيل التي على بعد سبعة أميال ، وبعد نصف ساعة نراه قابعاً في ركن من السور الخشبي يراقب كل حركة من العبيد ، وكي يفعل ذلك يترك فرسه في الغابة . أحياناً يوقظنا ويعطينا تعليمات العمل ويزعم أنه سيقوم برحلة طويلة ، ثم يتركنا ويتجه إلى منزله للاستعداد ، ثم يعود زاحفاً إلى ركن من السور أو خلف شجرة ، ويبقى هناك يراقبنا حتى مغيب الشمس .

وهكذا كانت قوة مستر كوفاي تكمن في قدرته على الخداع . حياته كلها مكرسة لتخطيط وتنفيذ أكبر الحيل . ولقد واءم بين كل ما يعرفه من علم ودين ، وهذا الميل إلى الخداع . لقد بدا مؤمناً بأنه يستطيع أن يخدع الله نفسه . وكان يصلي صلاة قصيرة في الصباح ، وصلاة طويلة في المساء ،

وكان غريباً أن تجد من هو أكثر منه تبتلاً . . .

كانت ممارسة العبادة في أسرته تبدأ بالغناء ، ولأنه كان صاحب نفس قصير أصبح علي أنا أن أرفع صوتي بالترنيم . كان يقرأ ترنيمته ثم يشير إلي أن أعيدها بصوت قوي . وكنت أفعل ذلك في بعض الأوقات ، ولكني في أوقات أخرى كنت أرفض . وكان عدم امتثالي هذا يسبب فوضى كبيرة . وكي يظهر أنه مستقل عني يبدأ في الغناء ويتعثر في الترنيم بشكل يجعل صوته نشازاً كله . . .

في هذه الحالة العقلية ، كان يصلي بروح أكثر من عادية ، هذا الرجل البائس ! ، ذو النزعة الدينية ، والناجح في الخداع لدرجة جعلتني على اعتقاد راسخ بأنه كثيراً ما يخدع نفسه بأنه عابد مخلص للإله الأعظم ، في الوقت الذي يجبر فيه « أمَة » له على ارتكاب الزنا .

إن حقيقة هذه المسألة معروفة . فلقد كان مستر كوفاي رجلاً فقيراً بدأ حياته حديثاً كمالك للعبيد . لم يكن في الأصل قادراً إلا على شراء عبد واحد ، وكانت هذه حقيقة صادمة له . لذلك اشترى هذه الأمة للإخصاب كما قال . كان اسمها « كارولين » . اشتراها من مستر « توماس لووي » الذى تبعد مزرعته حوالى ستة أميال من مزرعة سانت ميشيل . كانت امرأة لها جسد قوي كبير في حوالى العشرين من عمرها ، أنجبت من قبل طفلاً أثبت لمستر كوفاي أنها حقاً ما يريده . بعد شرائها استأجر رجلاً متزوجاً من مستر صامويل هاريسون ليبقى عنده عاماً واحداً ، واعتاد أن يجعل هذا الرجل ينام كل ليلة مع كارولين ! . وكانت النتيجة أن ولدت المرأة التعسة في نهاية العام توأمان مما جعل مستر كوفاي في غاية السرور سواء من الرجل أو المرأة التعسة . لقد كان من دواعي سروره وسرور زوجته أنهما إذ لم يفعلا شيئاً طيباً جداً لكارولين إبان حملها ، لم يفعلا أيضاً شيئاً سيئاً جداً لها ! ، واعتبرا الطفل شيئاً يضاف إلى ثروتهما .

أعود فأقول أنه إذا كان هناك وقت في حياتي جرعت فيه أكثر من غيره

مرارة الرق فقد كانت الستة أشهر الأولى في مقامي مع مستر كوفاي . كنا نعمل في كل الأوقات ، ولا جو حار جداً علينا ، ولا بارد جداً حولنا ، ولا مطر ولا جليد ولا برد ، يصعب علينا العمل فيه ، عمل ، عمل ، عمل . في النهار والليل ، أطول الأيام كان هو أقصرها عند مستر كوفاي . وأقصر الليالي كانت أطولها . كنت في البداية لا أتحمل . ولكن عدة أشهر من هذا الحال روضتني . لقد نجح مستر كوفاي في ترويضي . روض جسدي وروحي ونفسي . انكسرت مرونتي الطبيعية ، لغتي العقلية ، ميلي للقراءة . انطفأت الشرارة المبهجة التي لمعت أمام عيني . انغلق عليّ ليل العبودية الأسود . أصبحت رجلاً تحول إلى دابة ! . . .

كان يوم الأحد هو يوم فراغي الوحيد ، وكنت أمضيه فيما يشبه ذهول البهائم ، بين النوم واليقظة تحت شجرة ضخمة . أحياناً كنت أستيقظ على ضوء من فكرة الحرية يدور في نفسي مصحوباً بأمل باهت يلمع للحظة ثم يختفي . واسقط في النوم مرة ثانية أبكي حالي . أحياناً كنت أستَفز لأنهي حياتي وحياة مستر كوفاي لكن يمنعني الأمل والخوف . إن معاناتي في مزرعة مستر كوفاي تبدو لي الآن مثل حلم أكثر مما هي حقيقة واضحة .

كان مكاننا يقوم وسط دغلات قليلة على خليج « تشيزابيك» الذي كانت واجهته الواسعة دائماً بيضاء بأشرعة السفن القادمة والمسافرة إلى كل ركن في الدنيا . وكانت هذه السفن الجميلة ، المكسوة بالبياض الناصع لصواريها ، المبهرة لعين كل رجل حر ، تبدو لي أشباحاً من الأكفان ترعبني وتعذبني بالتفكير في حالي البائس . وكنت كثيراً ، خلال الصمت العميق لأيام الآحاد في موسم الصيف أقف وحيداً على الشواطىء العالية للخليج ، وأحصي بقلب محزون ، وعيون دامعة ، الأعداد التي لا حصر لها من الصواري تتحرك إلى المحيط العظيم . كان هذا المشهد يؤثر في بقوة . يجبر أفكاري على الإنطلاق من أسرها . وهنا ، دونما أحد معي غير الرب ، كنت أفرغ شكوى روحي في طريقي الوعر ، وأنا أناجي الأعداد الكبيرة المتحركة من السفن .

« لقد غادرت مراسيك ، فأنت اذن حرة ، أنا هنا مقيد بالسلاسل ، أنا عبد !. تخطرين بانشراح قبل العاصفة الرقيقة ، وأتحرك بحزن قبل الجلد الدموي !.

انت الملائكة المجنحة للحرية ، تلك التي تطير حول العالم ، وأنا مقيد في الحديد ! آه لو كنت حراً !. آه لو كنت فوق أحد أسطحك الفخمة ، ويحميني شراعك ! لكن وآ أسفاه ، بيني وبينك سجاسج الماء ، فابحري وابحري . آه لو أستطيع الابحار أيضاً . لو أستطيع السباحة !. لو أستطيع الطيران! آه لماذا ولدت رجلاً يصنعون منه دابة!. إن السفينة السعيدة ترحل ، تختفي في ظلام المسافات ، وأبقى هنا فوق لهيب تل العبودية التي لا تنتهي . آه يا إلهي !، انقذني !. يا إلهي خذني . دعني أكون حراً !. هل هناك حقاً أي إله ؟. لماذا إذن أنا عبد ؟. سوف أهرب ، لن أتوقف عن ذلك ، وسواء فشلت أو نجحت فسأحاول . إن لدي حياة واحدة لأخسرها وقتلي هارباً مثل موتي ساكناً . مائة ميل إلى الشمال وأصبح حراً ـ فكر في ذلك جيداً ـ هل تفعلها ؟. أجل . . الله يساعدني سأفعلها ، لن أعيش وأموت عبداً . سأخوض البحر . هذا الخليج نفسه سيحملني إلى الحرية ، تبحر السفن التجارية في طريق الشمال الشرقي من نورث بوينت ، وسأفعل نفس الشيء . وحين أصل إلى رأس الخليج سأدير قاربي إلى الخلف واستمر عبر « ديلاوير » إلى بنسلفانيا . هناك لن يطالبني أحد بتصريح واستطيع السفر بلا خوف . إذن فلأدع الفرصة تأتي وأغتنمها . سأنتظر . . انني لست العبد الوحيد في العالم ، فلماذا التبرم ؟. أستطيع أن أتحمل أكثر مما رأيت ، إلى جانب أنني ما زلت صبياً . إن بؤس العبودية هو الذي سيزيد من سعادتي حين أتحرر ، وهناك يوم أفضل لا بد قادم » .

هكذا اعتدت أن أقلب فكري وأحدث نفسي مندفعاً تقريباً إلى الجنون في لحظة، وفي الثانية أصالح نفسي مع قسمتها التعسة .

لقد قررت أن حالتي كانت أكثر سوءاً خلال الأشهر الستة الأولى

لمقامي في مزرعة مستر كوفاي . ولقدقادت الظروف إلى تغير في طريقة مستر كوفاي في معاملتي في الأشهر الستة التالية مما شكل مرحلة مختلفة في تاريخي المتواضع. لقد رأيت كيف يتم صنع العبد من الإنسان ، وسوف ترى الآن كيف يتم صنع الإنسان من العبد .

في يوم من أكثر الأيام حرارة لشهر اغسطس عام ١٨٣٣ ، اجتمع كل من بيلي سميث ووليام هيوفس ، وإيلي ، وأنا ، في عملية طحن القمح . كان هيوفس يبعد الدقيق المطحون عن المطحنة ، وإيلي يقودها ، وسميث يمونها بالقمح ، بينما أقوم أنا بنقل القمح إليهم . كان العمل بسيطاً يتطلب من القوة أكثر مما يتطلب من العقل . لكنه كان بالنسبة لشخص لم يعتَدْه يشكل مشقة كبيرة. في حوالى الساعة الثالثة من نهار ذلك اليوم سقطت مغشياً علي . خذلتني قوتي ، وكان هناك صداع عاصف في رأسي مصحوباً بدوار عنيف وارتعشت كل أطرافي . ولأني أدركت ما سيترتب على ذلك أوقفت نفسي متأكداً أنه لا يمكن أن أتوقف عن العمل . وقفت بأقصى ما أستطيع من جهد ، ومشيت مترنحاً إلى قادوس المطحنة أحمل القمح ، لكني لم أستطع فسقطت من جديد شاعراً بأني مشدودمن أسفل بثقل ضخم . توقفت الطاحونة بالطبع . لقد كان لكل واحد ما يفعله ولم يكن ممكناً أن يعمل أحد عمل الآخر ويستمر في عمله في نفس الوقت .

كان مستركوفاي في منزله على بعد مائة ياردة تقريباً من الساحة التي بها الطاحونة ، ولقد غادر المنزل بسرعة حين لم يعد يسمع صوتها وأقبل الينا . سأل بسرعة عما حدث فأجابه بيلي بأني مريض ولا يوجد أحد ليحمل الحبوب . في ذلك الوقت كنت قد زحفت بعيداً إلى جانب السياج الذي يحيط الساحة آملاً أن ينعشني الظل. وسأل مستر كوفاي أين أنا فأشاروا إلى مكاني فأقبل نحوي . بعد أن تطلع برهة في وجهي سألني ما الأمر . . أخبرته بقدر ما أستطيع لأني كنت قد فقدت القدرة على الكلام . حينئذ وجه نحوي ركلة متوحشة وأمرني أن أقف .حاولت لكني سقطت فوق ظهري . صوب نحوي ركلة أخرى وأمرني من جديد أن أقف . حاولت

ونجحت في الاحتفاظ بقدمي ثابتتين ، لكن حين تقدمت ترنحت من جديد وسقطت تناول مستر كوفاي قطعة ثقيلة من خشب الجوز وصوب بها ضربة قوية فوق رأسي ، فجرحني جرحاً بالغاً انفجر على أثره الدم ، وأمرني مرة ثانية أن أقف . لم أئن أو أصرخ . قررت أن أدعه يفعل أسوأ ما عنده . . وفي وقت قصير بعد هذه الضربة أصبح رأسي أفضل . لقد تركني مستر كوفاي أواجه مصيري . وفي هذه اللحظة قررت أن أذهب إلى سيدي أشكو له مستر كوفاي ، وأطلب حمايته لي منه . كان علي أن أمشي سبعة أميال لانجز ما عزمت عليه ، وكان هذا في ظروفي هذه عملاً جنونياً . كنت منهوك القوى تماماً بسبب الركلات والضربات التي تلقيتها أكثر من صدمة المرض الذي وقعت فيه . ورغم ذلك ترقبت فرصتي . وبينما كان مستر كوفاي يتطلع الى الجانب الآخر ، بدأت السير إلى مزرعة سانت ميشيل . قطعت مسافة معقولة من الطريق المؤدي إلى الغابات حتى اكتشفني كوفاي وجعل يناديني مهدداً . لم أهتم لندائه ولا لتهديده ، وأخذت طريقي إلى الغابات بأسرع ما يمكن أن تسمح حالتي المرهقة . فكرت أني لو أخذت الطريق المعتاد سيكتشفني كوفاي بسهولة داخل الغابة . ابتعدت بما يكفي عن الطريق في الوقت الذي احتفظت بمسافة بيني وبينه لا تفقدني إياه . مشيت قليلاً ثم خانتني قواي مرة ثانية . سقط ونمت وقتاً طويلاً . كان الدم لا يزال ينزف من جرح رأسي . فكرت لبعض الوقت أني سأنزف حتى الموت لكن الدم تسبب في تلبد شعري فوق الجرح فسدّه . بعد أن تمددت لحوالى ثلاثة أرباع الساعة أوقفت نفسي وبدأت طريقي عبر المستنقعات المليئة بورد الماء ، عاري القدمين والرأس ، تتمزق في كل خطوة قدماي . قطعت السبعة أميال في حوالى خمس ساعات ووصلت إلى سيدي . كان مظهري يكفي ليؤثر في أي قلب ولو من حديد . كنت مغطى بالدم من قمة الرأس إلى أخمص القدمين ، شعري ملبد بالدم والتراب ، قميصي ملطخ بالدم ، قدماي وساقاي ممزقة في أكثر من مكان ومغطاة بالأشواك والدم . فكرت أني شخص أفلت في التو عارياً من وكر للوحوش . وبتواضع توسلت وأنا في هذه الحالة المحزنة إلى سيدي أن يستخدم سلطته لحمايتي . اطلعته على كل

الظروف بقدر ما أستطيع ، وبدا لي وقد أثر فيه حديثي ومظهري . لكنه جعل يذرع الأرض جيئة وذهاباً ويبحث عما يبرر موقف كوفاي ، ويقول إنه يتوقع أني كنت أستحق ما حدث . ثم سألني ما أريد . أخبرته رغبتي في العيش في مكان جديد لأنني لو عدت إلى مستر كوفاي مرة أخرى سأموت لا محالة ، لأن كوفاي لن يتوانى عن قتلي ، بل لقد أوشك أن يفعل ذلك حقاً . سخر السيد توماس من كلامي وقال إنه يعرف مستر كوفاي جيداً وإنه رجل طيب . كما أنه ـ توماس ـ لا يستطيع نزعي منه لأنه إذا فعل ذلك سيطالبه مستر كوفاي بأجر العام كله الذي سبق ودفعه له كإيجار عن هذه المدة ، وهكذا فعلي أن أعود من جديد إلى مستر كوفاي ولا يجب أن أزعجه ـ توماس ـ بأي قصص أخرى وإلاّ سوف يعيدني هو بنفسه .

بعد هذا التهديد صوب نحوي ستة من الركلات الثقيلة ، ثم قال إني سأبقى في مزرعته الليلة ، فالوقت متأخر كثيراً ، لكن علي أن أعود إلى مستر كوفاي في الصباح الباكر ، وإذا تقاعست سيفعل هو ذلك بي ، وهذا يعني أيضاً أنه سيجلدني . أمضيت الليل في مزرعة سانت ميشيل ، وفي الصباح بدأت طريق العودة . كان ذلك صباح يوم سبت وكنت ممزق الجسد مكسور الفؤاد لم أتناول عشاء في تلك الليلة ولا فطوراً ذلك الصباح . ووصلت لمزرعة كوفاي في حوالى التاسعة صباحاً . وبينما كنت أعبر السور الفاصل بين مزرعة مسز كيمب ومزرعتنا ، اندفع مستر كوفاي نحوي بسوطه العريض ليجلدني مرة أخرى . . قبل أن يصل إلي نجحت في القفز إلى حقول الذرة ، واختبأت بين عيدانها الطويلة . بدا كوفاي غاضباً جداً وبحث عني وقتاً طويلاً . كان سلوكي غير متوقع بالمرة بالنسبة له . وفي النهاية تخلى عن المطاردة معتقداً ، فيما أتصور ، بأني سأعود إلى البيت حين يعضني الجوع .

أمضيت ذلك اليوم تقريباً بين الأشجار . وكنت بين أن أعود إلى البيت فأجلد حتى الموت أو أبقى بين عيدان الذرة وأجوع حتى الموت . لكني في الليل رأيت ساندي جيكينز . وساندي هذا عبد أعرفه بعض الشيء ،

وأعرف أنه متزوج من امرأة حرة تعيش على بعد أربعة أميال من مزرعة مستر كوفاي . ولأن اليوم كان السبت فقد كان ساندي في طريقه لزيارتها . أخبرته بظروفي فدعاني بطيبة شديدة أن أذهب معه لبيته . ذهبت وحكيت له كل ما مضى وسألته النصيحة . وجدته حكيماً فاته الزمن . أخبرني بتدين عظيم أن علي أن أعود إلى مستر كوفاي ، لكن قبل عودتي يجب أن أذهب معه إلى مكان في الغابة حيث يوجد جذر شجرة معينة إذا أخذت قطعة منه معي وحملتها دائماً في جيبي على الجانب الأيمن ، فلها أثر التعويذة ، وستجعل من المستحيل على مستر كوفاي أو غيره أن يجلدني .

قال ساندي إنه يحمل قطعة من هذا الجذر منذ أربعة أعوام ، وخلالها لم يتلق ضربة قط من أي أحد ، ولا يتوقع أن يحدث له ذلك طالما يواظب على حملها . في البداية رفضت الفكرة ، ولم أكن ميالاً لتنفيذها ؛ لكن ساندي تحدث عن ضرورة ذلك بحماس شديد ، وأخبرني بأن هذا الجذر لن يؤذيني إن لم يفدني . وفي النهاية ، وحتى أبعث السرور في نفسه ، حملت جزءاً من ذلك الجذر على جانبي الأيمن ، وكان ذلك صباح يوم الأحد .

أخذت طريقي إلى البيت ، وعند دخولي من بوابة الساحة خرج مستر كوفاي في طريقه إلى المطحنة . تحدث إلي برقة وأمرني أن أسوق الخنازير عند مستنقع قريب . وتركني آخذاً طريقه إلى الكنيسة . لقد جعلني هذا السلوك الفريد من مستر كوفاي أبدأ حقيقة في الاعتقاد بأهمية الجذر الذي أعطاني ساندي إياه ، ولولا أن اليوم الأحد لعزوت كل سلوك لمستر كوفاي إلى قوة الجذر . وهكذا كنت في اعتقادي متردداً . سار كل شيء بطريقة حسنة حتى صباح الاثنين . في هذا الصباح كانت كل فضائل الجذر محل اختبار . لقد أوقظت قبل شروق الشمس لأنظف وأمشط وأطعم الخيول . أطعت ما صدر لي من أوامر وكنت مسروراً بطاعتي . ولكن بينما كنت أفعل ذلك دخل مستر كوفاي إلى الاسطبل ومعه حبل طويل . كنت في ذلك الوقت أقوم بإنزال بعض الأعشاب من أعلى السقيفة ، وهجم علي يمسك بساقي محاولاً أن يقيدني . لكني في نفس اللحظة قفزت ، فأمسك بقدمي فسقطت على

ارض الاسطبل . بدا واثقاً أنه قد أمسك بي ويستطيع أن يفعل ما يريد لكني - ولا أعرف من أين جاءتني هذه الروح - قررت القتال . أمسكت مستر كوفاي من عنقه ونهضت . أمسك بي وأمسكت به . كانت مقاومتي له غير متوقعة تماماً حتى أنه بدأ يتراجع . ارتعش مثل ورقة شجر فأعطاني هذا ثقة وتشبثت بقوة أكثر بعنقه ، فتفصّد الدم تحت أصابعي . صرخ مستر كوفاي ينادي هيوفس لينقذه . أقبل هذا وحاول أن يقيد يدي اليمنى في الوقت الذي ظل كوفاي ممسكاً بي ، لكني ركلت هيوفس ركلة قوية مباشرة تحت ضلوعه فتلوى وتركني . لم يكن لهذه الركلة أثر على هيوفس فقط ، ولكن على كوفاي أيضاً لأنه حين رأى هيوفس ينثني متألماً خارت شجاعته ، وسألني ما إذا كنت سأستمر في المقاومة فقلت سأفعل وليحدث ما يحدث ، وأنه استخدمني ستة أشهر مثل دابة ، وإني قد صممت على أن لا يحدث هذا مرة ثانية . حينئذ جاهد ليجرني إلى عصا مركونة خارج الاسطبل قاصداً الامساك بها وضربي ، لكني أمسكته بكلتا يدي من ياقته ، وألقيته بحركة مفاجئة فوق الأرض . في هذه اللحظة ظهر بيل . لقد ناداه كوفاي من قبل ليساعده . وقف بيل يسأل ماذا عساه يفعل ؟ . صرخ كوفاي « امسكه . . امسكه » ! . لكن بيل قال إنه قد استأجره للعمل وليس ليساعده على جلد أحد ثم تركنا وانصرف . ظللنا حوالى ساعتين نتقاتل وفي النهاية تركني كوفاي . كان متورماً من أثر الضرب لدرجة كبيرة . وقال إنه لولا مقاومتي لما جلدني نصف ما فعل . والحقيقة كانت أنه لم يجلدني بالمرة . واعتبرت أنه بلغ نهاية سيئة حيث لم يتسبب في نزف قطرة دم مني بينما جعلته ينزف . وهكذا طوال الستة أشهر الباقية التي أمضيتها معه لم يرفع اصبعه أمامي عند أي غضب . صار يقول في كل مناسبة « إنه لا يريد أن يقيدني مرة أخرى » . وأقول أنا لنفسي « لا تريد !؟ انك في غنى عن ذلك لأنك ستنال ما هو اسوأ من ذي قبل » .

كانت هذه المعركة مع مستر كوفاي هي نقطة التحول في عملي كعبد . لقد أشعلت الرماد القليل الخامد لفكرة الحرية وأحيت في نفسي

معنى رجولتي . . لقد جعلتني أستعيد الثقة بنفسي ، والهمتني مرة ثانية بالتصميم على الحرية . وكان الاشباع الروحي الذي قدمه لي انتصاري تعويضاً كاملاً عن أيَ شيء يمكن أن يحدث فيما بعد ولو كان الموت نفسه .

ويستطيع فقط أن يفهم الرضا العميق الذي شعرت به ، من تمرد بنفسه وبقوته على الذراع الدموية للعبودية . لقد شعرت بما لم أشعر به من قبل . كان شيئاً مثل البعث الجديد من مقبرة العبودية إلى سماء الحرية . لقد نهضت روحي التي تحطمت كثيراً وزال جبني ليحل مكانه التحدي الشجاع . وقررت أنه مهما طال بي الوقت عبداً في الشكل فلقد زال وإلى الأبد اليوم الذي أكون فيه عبداً حقيقياً . لقد تأكد لي بيقين أن الرجل الأبيض إذا أفلح في جلدي سيفلح أيضاً في قتلي . ومنذ ذلك اليوم لم أعد ما كان يسمى « بالمُباح الجلد » ، رغم أني بقيت عبداً لأربع سنوات تالية . لقد خضت معارك عديدة فيما بعد لكني لم أجلد قط .

شغلني لوقت طويل فيما بعد تساؤل لماذا لم يستدع مستر كوفاي « المفتش » لينقلني إلى مركز الجلد وهناك أجلد لجريمة رفع يدي على رجل أبيض دفاعاً عن نفسي ! . إن التفسير الوحيد الذي أعتقده الآن لا يرضيني لكن سأقوله كما هو . لقد استفاد مستر كوفاي كثيراً بالسمعة العريضة له كمراقب من الطراز الأول ومروض للزنوج . كان لهذا أهميته الكبيرة بالنسبة له ، وكانت سمعته راسخة في هذا المجال ، ومن ثم فإن إرسالي وأنا بعد غلام في السادسة عشرة من عمره ، إلى مركز الجلد العام ، سيفقده كثيراً من سمعته . وهكذا فقط لانقاذ سمعته فضل أن يقاسي من عدم عقابي .

انتهت فترة خدمتي الحقيقية لمستر ادوارد كوفاي في يوم عيد الميلاد عام ١٨٣٣ ، ولقد سمح لنا أن نمضي الأيام ما بين الميلاد ورأس السنة كاجازة . ووفقاً لذلك لم يسند إلينا أي عمل أكثر من إطعام الحيوانات والعناية بها . كان الاعتقاد أن هذا الوقت ملك لنا ، وهو من فضل أسيادنا ، ومن حقنا أن نستفيد به على هوانا ففيه يسمح للذين لديهم عائلات بعيدة بزيارتها وانفاق الأيام الستة بينها . أما الباقون فيمضون

وقتهم بطرق مختلفة . الكبار الهادئون من ذوي الوقار منا يشغلون أنفسهم بعمل مقشات من أعواد الذرة ، وحصر ، وبرادع للخيل ، وسلال . آخرون يمضونه في صيد الحيوانات الصغيرة من الأرانب والفئران البرية . لكن القسم الأكبر ينغمس في الألعاب الرياضية والمسابقات الخفيفة مثل لعب الكرة والسباق والعزف على الكمان والرقص ، واظهار القوة في ثني الذراع ، وشرب الويسكي . ولقد كان هذا النوع الأخير من تزجية الوقت هو الذي يحبه لنا أسيادنا . بل إن العبد الذي يمضي اجازته في عمل ما كان يُنظر إليه على أنه جاحد لمعروف سيده ، وكسول لم يتدبر أمره طوال العام بما يكفي حصوله على الويسكي المناسب لعيد الميلاد .

وهكذا أستطيع القول أن هذه الاجازات كانت من أكثر وسائل ملاك العبيد ترويضاً للعبيد . بل إذا ما أهمل ملاك العبيد هذه الاجازات وما يجري خلالها فسوف يساهم ذلك في التمرد الفوري للعبيد . لقد استخدمت هذه الاجازات كصمامات أمن لكبح روح التمرد عند الإنسان المستعبَد ، والويل لمالك العبيد إذا يوماً غامر بعدم السماح بهذه الاجازات أو غيّر ما يتم خلالها من مباذل . في مثل هذه الحالة سوف تنطلق الروح من عقالها مرعبة أكثر من زلزال مدمّر .

كانت الاجازات حلقة من حلقات الخداع الكبير ، وجزءاً من السمة اللاإنسانية للعبودية . إنها عادة قامت باحتراف على أساس حب الخير عند ملاك العبيد ، لكني قادر على القول بأنها بنت الأنانية ، وإحدى الخدع الكبرى للعبيد . ملاك العبيد لا يعطون عبيدهم هذا الوقت لإراحتهم من العمل الشاق ، ولكن لأنهم يعرفون أنه من الخطر حرمانهم منه ، فهم - الملاك - يعملون ليمضي عبيدهم تلك الأيام في جو من المساخر ليجعلوهم سعداء بنهايتهم وبدايتهم . ويبدو الأمر كنوع من المواءمة بين العبيد والحرية باغراقهم في أسفل أعماق التهتك . إن مالك العبد ، على سبيل المثال ، لا يحب أن يرى عبده يشرب الويسكي بطريقته الخاصة ، لكنه يسهل له الطرق المختلفة للسكر . من هذه الطرق اشاعة المراهنة بين العبيد على من

يشرب أكبر كمية دون أن يبلغ حد السكر . بهذه الطريقة ينجح الملاك في دفع أكبر عدد من العبيد إلى الشرب حتى النهاية . وهكذا حين يُسأل عبد عن الحرية الفاضلة ، فإن المالك المخادع الذي يعلم بجهله ، يخدعه بجرعة من التهتك الذميم الممتزجة بخبث باسم الحرية . لقد اعتاد معظمنا على السكر وكانت النتيجة كما هو مرسوم لها بالضبط ، أن اعتقد أكثرنا أن لا فرق كبيراً بين العبودية والحرية ، وأن سبب المفاضلة بينهما ضئيل جداً .

كانت الإجازة تنتهي ونحن نترنح من أثر تهتكنا الفاحش. نأخذ نفساً طويلاً ونمضي إلى الحقول ، شاعرين بأنه من الأفضل لنا أن ننطلق مما خدعنا سيدنا بأنه الحرية ، إلى الوراء حيث تنتظرنا ذراعا العبودية . لقد كان هذا النوع من المعاملة جزءاً من نظام كامل للخداع ولا إنسانية العبودية كما قلت . إنه يتبنى تنفير العبد من الحرية وتحقيره لها بالسماح له أن يرى فقط فوضاها ويمارس هذه الفوضى . نفس الطريقة يتم تبنيها لجعل العبد يمسك عن السؤال عن أي زيادة في الطعام عما هو مخصص له . إذ يحدث أن ينتهي العبد من حصته من الغذاء قبل موعد استلام الحصة الأخرى فيطلب المزيد من الغذاء . حينئذ يغضب سيده ، لكنه في نفس الوقت لا يريد له أن يعود بلا طعام ، فيعطيه أكثر مما هو ضروري ، ويجبره على أن يأكله خلال وقت محدد . تكون النتيجة أن يشكو العبد من عدم قدرته على أكل هذه الكمية في هذا الوقت القصير فيقال له إنه مُنبت لا يرضى بالشبع ولا بالجوع ويتم جلده لأنه رافض للمتعة . . وبالطبع يكره العبد الطعام بعد ذلك . . .

إن لدي وفرة من هذه الأمثلة التي تكشف وتوضح المبادىء التي ينتهجها ملاك العبيد لخداع عبيدهم ، وكلها مستقاة من ملاحظتي الخاصة ، لكني أعتقد أن الحالات التي سقتها كافية ، وأن ممارستها شائعة جداً .

في أول يناير عام ١٨٣٤ تركت مستر كوفاي ، وتوجهت للحياة مع مستر ويليام فريلاند الذي كانت مزرعته على مقربة ثلاثة أميال من مزرعة

سانت ميشيل . وجدت مستر فريلاند مختلفاً تماماً عن مستر كوفاي . وبرغم أنه لم يكن غنياً إلا أنه يمكن أن نسميه « الجنتلمان الجنوبي المتعلم » .

كان مستر كوفاي كما أوضحت مروض زنوج جيد ، بينما بدا هـذا - رغم أنـه مالـك عبيد - لـديه بعض الاعتبـار للشـرف ، وبعض الاهتمـام بالعدالة ، وبعض الاحترام لـلإنسانيـة - ولم يكن مستر كـوفاي يمتلك أدنى احساس بأي من هذه العواطف .

لقد كان لمسـتر فريـلاند كثـير من مثالب مـلاك العبيد ، مثـل كونـه انفعالياً جداً ومتبرماً ، لكن من الإنصاف له أن أقول إنه كان متحرراً لدرجة كبيرة من تلك الحيل المنحطة التي كان مستر كوفاي مرتبـطاً بها . لقـد كان فريلاند واضحاً وصـريحاً نعـرف دائماً أين نجـده ، بينما كـان كوفـاي أكثر المحتالين خبثاً . كذلك كان سيدي الجديـد هذا لا يبـدي أي ادعاء نحـو الدين ، وكان هذا في رأيي ، ميزة عظيمة حقاً .

إنني أؤكد بثقة كبيرة أن ديانة الجنوب ، هي مجرد غطاء لأكثر الجرائم رعباً ، وهي مبرر للبربرية ، ومسوغ لأكثر الحيل كـراهية ، وغـطاء مظلم يحمي أكثر أفعال ملاك العبيد حماقة ووحشية ودماراً . وحيث كان علي أن استمر بالرزُوح تحت نير العبودية ، فقد كنت أعتبر أن أعظم رزيّة تلحق بي هي أن أكـون عبداً لسيـد متدين ، لأنـه من بين كـل ملاك العبيـد الذين قابلتهم ، كان ملاك العبيد المتدينون أسـوأهم . وجدتهم دائـماً الأخبث ، والأحقـر ، والأجبن ، والأخس ، من كل الآخـرين . لقـد كـان قـدري التعس أن أكـون ، ليس فقط مملوكاً لمـالك متـدين ، ولكن أن اعيش في مجتمع لمثل هؤلاء المتدينين . فقريباً جداً من مستر فريلانـد عاش القسيس دانييل ويدن ، وفي نفس الجيرة عاش القسيس ريجبي هوبكنز . كان هذان عضوين وكاهنين في الكنيسة الميثودية للإصلاح . وكان مستر ويدن يمتلك ، من بـين العبيد ، امـرأة نسيت اسمها ، لكن لا أنسى كيف ظل ظهـرها أسبوعاً ينزف من جراء سوط هذا المتدين التعس الذي لا يرحم . لقد كان من عادته استئجار العبيد ، وكانت حكمته « سواء كان عمل العبد جيداً أم

لا فواجب السيد في كل مناسبة أن يجلده ليذكره بسلطانه » . كانت هذه نظرية وكان يمارسها . .

وكان مستر هوبكينز أكثر سوءاً من مستر ويدن . مفخرته الرئيسية هي قدرته على ادارة العبيد ، وما يميز سلطته هو جلد العبيد دون وجه حق . كان يحافظ دائماً على جلد واحد أو اثنين من عبيده صباح كل اثنين وذلك لاثارة الرعب في الآخرين . وكانت خطته تقوم على الجلد لأهون الأسباب لمنع وقوع أخطاء أكبر . انه لشيء مدهش للانسان الذي لم يعتد حياة العبودية، أن يرى بأية سهولة رائعة يستطيع مالك العبيد أن يجد المناسبة لجلد عبيده . إن مجرد نظرة أو كلمة ، أو حركة ، أو خطأ بالصدفة ، أو ضعف في القوة تكفي لتكون سبباً لجلد العبيد في أي وقت . . هل يبدو على العبد أنه غير راض ؟ هناك شيطان في داخله ويجب جلده لطرد الشيطان . هل تكلم العبد بصوت مرتفع حين كلمه سيده ؟ حينئذ يكون قد حاز عقلاً من مرتبة أعلى ويجب جلده حتى يعاد إلى المرتبة الدنيا . هل نسي العبد أن يخلع قبعته حين اقترب شخص أبيض منه ؟ حينئذ يحتاج لتطهيره بالجلد . هل غامر بأن دافع عن فعلته التي تم توبيخه عليها ؟ حينئذ يكون مذنباً بالتطاول ـ وهي احدى الجرائم العظمى للعبد ـ هل تجرأ ليقترح طريقة أخرى لعمل الأشياء غير تلك التي أقرها سيده ؟ حينئذ يكون مغروراً بحق ويضع نفسه في موضع أكبر ولا أقل من جلده جلداً مبرحاً . هل كسر العزاقة خلال العزيق ، أو كسر الفأس خلال تقليب الأرض ؟ إنه مهمل ويجب جلده .

ولقد استطاع مستر هوبكينز أن يجد دائماً شيئاً من هذا ليبرر استخدامه للسوط، ونادراً ما فشل في اغتنام أية فرصة لذلك . لم يكن هناك رجل في كل المقاطعة يفضل العبيد الموت عنده مثل هذا القسيس هوبكينز ، ورغم ذلك لم يكن هناك رجل في أي مكان حولنا يقوم بشعائر الدين وينشط في أحيائها ، وأكثر اهتماماً بالدرس ، وعيد المحبة ، والصلاة ولقاءات الوعظ ، أو أكثر تكريساً لها بين أسرته ، حيث يصلي مبكراً ،

ومتأخراً ، وبصوت عال ، ولـوقت طويـل ، مثل القسيس مـراقب العبيد « ريجبي هوبكينز » .

ولكن نعود إلى مستر فريلاند وخبرتي في خدمته . لقد كان مثل مستر كوفاي يعطينا طعاماً كافياً ، لكنه اختلف عن مستر كوفاي في أنه كان يعطينا وقتاً كافياً لنأكله . انه يعهد الينا بالعمل الشاق حقاً لكن دائماً بـين شروق الشمس ومغربها . كان يطلب كثيراً من العمل وجودة الإنجاز لكن يعطينا أدوات جيدة نعمل بها . كانت مزرعته كبيرة لكنه استخدم فيها مـا يكفي من الأيدي العاملة التي تستطيع إنجاز عملها بسهولة بالمقارنة مع كثير من جيرانه . كانت معاملتي ، خلال خدمتي له ، تعد شيئاً سماوياً بالقياس بما لاقيته بين يدي مستر ادوارد كوفاي .

كان مستر فريلاند نفسه يمتلك عبدين فقط هما هنري هاريس وجون هـاريس أما بقيـة العبيد فقـد استأجـرهـم ، وهـم سـانـدي جينكينـز(*) ، وهاندي كالدويل ، وأنا . كان هنري وجون ذكيين جداً ، حتى أني بعد فترة قصيـرة من وصولي ، نجحت في أن أبعث فيهـما الـرغبـة القـويـة في تعلم القراءة ، وسرعان ما انتشرت هذه الرغبة بـين الآخرين ، فجمعـوا بعض الكتب القديمة لتعلم القراءة ، وقرروا أن أفعل شيئاً مثل مدرسة الآحاد لأعلم أحبائي العبيد هؤلاء ، الذين لم يكن أحد منهم يعرف حـروف اسمه ، عنـد وصولي إلى المـزرعة . اكتشف بعض عبيـد المـزارع المجاورة ما كان يدور وهيأوا أنفسهم لهذه الفرصة الصغيرة لتعلم القراءة . كان مفهوماً بين الجميع أن الأمر يجب أن يبقى سراً بيننا بقـدر الامكان . كان ضرورياً أن يظل أسيادنا المتزمتين بمزارع سانت ميشيل جهلاء بحقيقة أنه بـدلاً من تمضيـة أيـام الآحـاد في ألعـاب القـوة والملاكمـة وشـرب

(*) هذا هو نفس الرجل الـذي أعطاني الجـذر ليمنع عني جلد مسـتر كوفـاي . لقد كـان روحاً نشطة واعتدنا كثيراً أن نتحدث عن المعركة التي دارت بيني وبين كوفاي وكان دائماً يعـزو نجاحي فيها إلى قوة الجذر الذي أعطاني إياه . ولقد كانت هناك أيضـاً خرافـة شائعـة بين الكثير من العبيـد الجهلاء فحواها أن العبد لا يموت ، ولكن موته نوع من الخداع .

الويسكي ، فاننا نحاول أن نتعلم كيف نقرأ. انه لما يسرهم كثيراً أن يرونا غارقين في تلك الرياضات النزقة أكثر من أن يروننا نتصرف كمتعلمين ذوي أخلاق ، وكمخلوقات عاقلة . لقد كان دمي يغلي كلما فكرت في السلوك الدموي لكل من مستر رايت فيربانكس وجاريسون ويست - وكلاهما واعظ - حين اندفعا مع غيرهما نحونا بالعصي والحجارة ومنعونا من درس الأحد في سانت ميشيل . كلهم سموا أنفسهم مسيحيين !، والحواريين المتواضعين للسيد يسوع المسيح . لكني مرة أخرى انحرف عن موضوعي . . .

لقد كانت مدرسة الأحد هذه تتم في بيت رجل ملون حر أتخلى عن ذكر اسمه لأن ذلك قد يؤذيه كثيراً رغم أن جريمة هذه المدرسة ارتكبت منذ عشر سنوات مضت . كان لدي في بعض الأوقات أربعون تلميذاً يرغبون بحماس في التعلم . وكانوا من كل الأعمار ومن الرجال والنساء . انني أنظر إلى أيام الآحاد تلك بنوع من السرور الذي لا يمكن وصفه . كانت أياماً عظيمة لروحي ، وكان تعليم اخوتي الأعزاء من العبيد أحلى انجاز به بوركت دائماً .

لقد أحببنا بعضنا البعض ، وكان الفراق عند نهاية يوم الأحد شيئاً قاسياً حقاً . إنني اليوم حين أفكر أن هذه الأرواح الغالية قد أغلق عليها في سجن العبودية تقهرني مشاعري ، وأكاد أسأل « هل يحكم الله الحق هذا العالم ؟. ولماذا يحتفظ بالرعود في يده اليمنى إذا لم تكن للبطش بالظالمين ولانهاء افساد المفسدين؟» إن هذه الأرواح الطيبة لم تكن تأتي إلى مدرسة الأحد لأن ذلك عمل عادي ، ولم أكن أعلمهم طمعاً بالسمعة الطيبة بل ان القبض عليهم وجلدهم تسعاً وثلاثين جلدة ، كان وارداً في كل لحظة . لكنهم أتوا لأنهم رغبوا في التعلم . لقد جاعت عقولهم بسبب قسوة أسيادهم . لقد أغلق عليهم في ظلام العقل . ولقد علمتهم لأنه كان شيئاً مبهجاً لنفسي أن أفعل شيئاً يبدو مساهماً في تحسين ظروف بني جنسي .

لقد استمرت مدرستي تقريباً طول العام الذي عشته مع مستر

فريلانـد . وإلى جانب يـوم الأحـد ، كـرست نفسي لثـلاث أمسيـات في الأسبوع خلال الشتاء لأعلم العبيد في بيوتهم . انه ممـا يسعدني كثيـراً أنني اعرف أن عديداً ممن أقبلوا على مدرسة الأحد تعلموا كيف يقـرأون ، وأن هناك واحداً على الأقل حر الآن بسبب ما فعلت . .

لقد مر العام هادئاً . بدا كأنه نصف عام قياساً بالعام الذي سبقه . لقد عبرته دون أن أتلقى ضربة واحدة . . وإني لأشهد بأن مستر فريلاند هو أحسن سيد قابلته حتى أصبحت سيد نفسي . وبسبب السهولة التي عبرت بها هذا العام كنت أيضاً مديناً شيئاً ما لمجتمـع رفاقي العبيـد . لقد كـانوا أرواحاً نبيلة . إنهم لم يمتلكوا فقط قلوباً محبة ، ولكن أيضاً شجاعة . لقد ارتبطنا وتداخلنا مـع بعضنا وأحببتهم أكـثر من أي شيء عرفتـه حتى ذلك الوقت . يقال أحياناً إننا نحن العبيد لا نحب ولا نثق ببعضنا ، وللاجـابة على هذا أستطيع القول بأنني لم أحب ولم أثق قط في أي ناس أكثر من رفاقي العبيد ، وخاصة أولئك الذين عشت معهم في مزرعة مستر فريلاند . اعتقد أننا كنا مستعدين للموت في سبيل بعضنا البعض . إننا لم نفعل شيئاً له أي أهمية ، دون أن نستشير بعضنا ونتبادل الرأي . لم نتحرك فرادى بل رجـلاً واحداً بأمزجتنا وميولنا أكثر مما كنا بسبب ما نعانيـه من مشقات كعبيد .

في نهاية عام ١٨٣٤ استأجرني مستر فريلاند مـرة أخرى من سيـدي للعام ١٨٣٥ ، لكني في هذا الوقت بدأت أرغب بقوة في العيش على « أرض حرة » بدلاً من العيش مع رجل اسمه « الأرض الحرة »(*) ! . ولم أعد قادراً على الرضا بالحياة معه أو مع غيره من ملاك العبيد . وبدأت مع بداية العام أعد نفسي لمعركة نهائية عليها يتقرر مصيري . كان إتجاهي قـد تحدد إلى الأمام ، وكنت أنمو بسرعة في طريق الرجولة ، وعاماً يمر وراء عام ولا زلت عبداً . . أثارتني هذه الأفكار . يجب إذن أن أفعل شيئاً . لـذلك صممت على أن لا يمر عام ١٨٣٥ دون أن يشهد محاولة من جانبي للحصول

(*) فريلاند وهو اسم سيده تعني (الأرض الحرة) .

على حريتي . لكن لم أرغب في إنجاز هذا وحدي . كان رفاقي العبيد أعزاء على نفسي وكنت مشتاقاً لمشاركتهم معي ، ولذلك ، وبرغم الحذر المطلوب ، بدأت مبكراً ألفت أنظارهم ومشاعرهم نحو حالتهم ، وأثير عقولهم بالأفكار حول الحرية . روضت نفسي على اخفاء وسائل وطرق الهروب ، بينما اغتنمت كل فرصة مناسبة كي أثيرهم ضد الخدع الكبيرة واللاإنسانية للعبودية . بدأت بهنري ثم جون ثم الآخرين . وجدت فيهم جميعاً قلوباً دافئة وأرواحاً نبيلة . كانوا مستعدين للإنصات ومستعدين للعمل حين تقدم اليهم خطة واضحة ، وكان هذا هو ما أريده .

قلت إننا لا نكون رجالاً إذا خضعنا للاستعباد دون أقل مجهود نبيل من أجل الحرية . وتقابلنا كثيراً ، وتشاورنا كثيراً ، وتحدثنا عن آمالنا ومخاوفنا ، وأحصينا الصعوبات الحقيقية والمتخيلة التي يجب أن نستعد لملاقاتها . كنا أحياناً نميل للاستسلام ونحاول المواءمة بين أنفسنا وبين قسمتنا البائسة ، وأحياناً نبدو أكثر حزماً ولا نتردد في التصميم على الهرب ، وحين نقترح خطة بيننا يظللنا الانكماش ويبدو أكثرنا خائفاً فطريقنا محفوف بالصعاب العظمى ، وحتى إذا نجحنا في بلوغ نهايته فان حقنا في أن نكون أحراراً أمر مشكوك فيه ، ذلك لأننا نظل معرضين للاعادة إلى العبودية .

لم نر مكاناً في هذا الجانب من المحيط يمكن فيه أن نكون أحراراً ، ولم نكن نعرف شيئاً عن كندا ، كما أن معرفتنا عن الشمال لا تتجاوز نيويورك ، التي يعني الذهاب إليها ، البقاء إلى الأبد في خوف من الإمكانية المرعبة للاعادة الى العبودية ، حيث ستكون معاملتنا بالتأكيد أسوأ من ذي قبل . لقد كانت الفكرة مخيفة حقاً ، ولم يكن سهلاً التغلب عليها ، والقضية برمتها كانت على هذه الصورة . . .

« في كل بوابة نرى مراقباً ، وعند كل معبر نرى حارساً ، وفوق كل جسر ديدبان ، وداخل كل غابة دورية من العسس .

لقد كنا نحاول التغلب على أية صعوبة حقيقية أو متخيلة . نتمسك

بالحقائق الطيبة ونتحاشى الحقائق الشريرة . في ناحية تقف العبودية واقعاً جامداً يحدق مرعباً إلينا بصورته الملطخة بدم الملايين وببقائه حتى الآن يتغذى بشراهة على لحمنا . في الناحية الأخرى نعود إلى الوراء ، إلى المسافة العميقة تحت الضوء اللامع لنجمة الشمال ، خلف تل وعر أو جبل يغطيه الثلج ، حيث تقف الحرية مشكوكاً فيها ، تشير إلينا أن نأتي ونشاركها . كان هذا في ذاته كافياً ليجعلنا نتردد ، لكننا نسمح لأنفسنا بالتقدم ، وما نكاد نقطع الطريق حتى نمتلىء جزعاً ففي كلتا الناحيتين نرى الموت المؤكد .

تخيلنا أكثر الاشكال رعباً . جوع يجعلنا نأكل لحمنا . موج عات نستسلم أمامه للغرق ، وننتهي مهزومين دائماً تمزقنا أنياب كلاب المطاردة الدموية وتلدغنا العقارب ، وتطاردنا الوحوش البرية ، وتعضنا الثعابين السامة ، وما نكاد نصل إلى المكان المرغوب فيه بعد سباحة الأنهار ومواجهة الوحوش الضارية والنوم في ظلام الغابات ومقاساة الجوع والعري حتى يتم القبض علينا . نقاوم فيتم صرعنا بالرصاص في نفس المكان ! . . »

« فلنتحمل ما نعيشه من أهوال

بدلاً من الطيران إلى ما نجهله » .

هذا ما كانت تصل بنا إليه تلك الصور المزعجة ، فلقد كنا حين ننتهي إلى يقين ثابت بالهرب نختلف عن باتريك هنري حين صمم على الحرية أو الموت . معنا كانت الحرية أمراً مشكوكاً فيه ، والموت هو اليقين إذا وقع الفشل . لكني من جانبي فضلت الموت على أن أظل أسيراً للقيود بلا أمل .

تخلى ساندي ، أحد أعضائنا ، عن الفكرة لكنه ظل يشجعنا . أصبحت جماعتنا تتكون من هنري هاريس وجون هاريس ، وهنري بايلي ، وتشارلس روبيرتس ، وأنا . كان هنري بايلي خالي ويملكه سيدي ، بينما كان تشارلس زوج خالتي ويملكه مستر ويليام هاملتون حمو سيدي . . .

كانت الخطة التي توصلت إليها هي أن نحصل على قارب خفيف

يملكه مستر هاملتون ، نتحرك به في مساء السبت السابق لإجازة عيد القيامة ونجذف مباشرة إلى خليج تشيزابيك . وحين نصل إلى رأس الخليج ، على مسافة سبعين أو ثمانين ميلاً من مكان عيشنا ، نترك القارب تتحرك به الأمواج ، ونجعل من نجمة الشمال دليلنا حتى نصل إلى ما وراء حدود ميريلاند . لقد فكرنا في طريق البحر حيث أننا فيه نكون أقل عرضة للشك كهاربين ، كما كنا نأمل أن يظننا من يرانا صيادين ، وأيضاً لأننا إذا أخذنا طريق البر سنتعرض لكل أنواع المقاطعة حيث يستطيع كل شخص له وجه أبيض ، أو لديه أدنى شك ، أن يوقفنا ويتحرى عنا .

قبل أسبوع من الوقت المتفق عليه كتبت عدة تصاريح ليحمل كل منا واحداً منها وبقدر ما أستطيع أن أتذكر كانت صيغتها كالتالي :

« أشهد أنا الموقع أدناه بأني أعطيت حامله ، خادمي ، الحرية الكاملة في الذهاب إلى بالتيمور وقضاء إجازة عيد القيامة . ولقد كتبت هذا بخط يدي ..... ١٨٣٥ » .

وليام هاملتون

بالقرب من مزرعة سانت ميشيل . مقاطعة كاونتي

ميريلاند

بالطبع لم نكن ذاهبين إلى بالتيمور ، ولكن في صعودنا الخليج سنأخذ اتجاه بالتيمور ، ومن ثم كانت التصاريح لحمايتنا فقط بينما نكون في الخليج .

كان وقت الرحيل يقترب ، ويزداد قلقنا حدة . . انها حقاً مسألة حياة أو موت بالنسبة لنا ، وها هي قوة عزيمتنا على وشك أن نكون موضع اختبار .

في ذلك الوقت نشطت في شرح كل صعوبة ، وإزالة كل شك ، وإبعاد أي خوف ، أحاول ما استطعت الهام الجميع بالعزم الذي لا غنى عنه للنجاح في مهمتنا ، مؤكداً لهم أننا نحصل على نصف هدفنا في اللحظة التي

يبدأ فيها تحركنا . وقلت إننا تحدثنا طويلاً بما يكفي ، ويجب أن نستعد للحركة ، فإن لم يكن ذلك الآن ، فلن يكون أبداً . وإذا لم ننوِ الحركة الآن فعلينا أن نطوي أذرعنا ونجلس ونتهيأ لأن نكون عبيداً فقط . لكن أحداً بالفعل لم يكن يهيء نفسه لذلك ، فلقد كانوا رجالاً ثابتي العزم ، وفي لقائنا الأخير عاهدنا أنفسنا بإيمان بالغ بأن نبدأ رحلتنا بحثاً عن الحرية في الوقت الذي حددناه . كان هذا اللقاء في منتصف الأسبوع الذي ستشهد نهايته هروبنا . وذهبنا كالمعتاد إلى الحقول المختلفة للعمل ، ولكن بصدور تجيش بها الأفكار عن مهمتنا الخطرة . لقد حاولنا أن نخفي مشاعرنا بأكبر ما نستطيع ، وأعتقد أننا نجحنا تماماً .

بعد انتظار مؤلم أقبل يوم السبت الذي كان على ليله أن يشهد رحيلنا . استقبلت اليوم بفرح طاغ أوقف أي حزن ممكن ، لقد كانت الليلة السابقة ليلة أرق لي . ومن المحتمل أني كنت أكثر قلقاً من الآخرين . ، فأنا الذي على رأس المهمة كلها ، ومسؤولية النجاح أو الفشل ملقاة على وحدي ، فالمجد في النجاح والدمار في الفشل ، وذلك كله في يدي .

لقد كانت الساعات الأولى لذلك الصباح شيئاً لم أعهده من قبل وأتمنى ألا تعود مرة ثانية . لقد ذهبنا مبكراً كالمعتاد إلى الحقول حيث سننشر السماد . وبينما الجميع منغمسون في العمل تحولت إلى ساندي الذي كان قريباً . وقلت « هناك خيانة » قال : لقد خطرت لي هذه الفكرة في التو، ولم نتحدث أكثر من ذلك إذ لم أعد متأكداً من أي شيء . .

صاح النفير وتركنا الحقول إلى البيت لنتناول الافطار . فعلت ذلك لمجرد الحفاظ على الشكل لا لحاجتي لأي طعام . وبالضبط حين دخلت البيت ، التفت ونظرت ووجدت عبر البوابة الضيقة أربعة رجال يتبعهم رجلان ملونان . كان الرجال البيض على صهوات خيولهم والرجلان الملونان يمشيان خلفهم كمربوطين بهم . لاحظتهم قليلاً حتى دخلوا من بوابة البيت الضيقة . هنا ترجلوا وقيدوا الملونين إلى مصراعي البوابة . لم أكن متأكداً بعد من سبب ما يحدث . في لحظات قليلة ظهر مستر هاملتون قادماً على

الطريق بسرعة تدل على ارتباك كبير . أقبل نحو الباب وسأل ما إذا كان مستر وليام موجوداً . عرف أنه في مخزن الغلال فاتجه إليه دون تعليق وبسرعة غير عادية . بعد لحظات قليلة عاد هو ومستر فريلاند . وفي ذلك الوقت وصل ثلاثة مفتشين ترجلوا بسرعة وقيدوا خيولهم ثم قابلوا مستر وليام ومستر هاملتون وهما عائدين من المخزن ، وبعد الحديث لفترة مشوا جميعهم ناحية باب المطبخ . لم يكن هناك غيري أنا وجون . كان هنري وساندي في مخزن الغلال . وضع مستر فريلاند رأسه على الباب وناداني قائلاً في ارتباك إن رجالاً محترمين يرغبون في رؤيتي . اتجهت اليهم وسألت ماذا يريدون ، وفي الحال أمسكوا بي ، ودون أن يعطوني أية فرصة قيدوني وضربوني بالسوط على يدي . أصررت على معرفة ما حدث ، فقالوا إنهم علموا بأني بصدد خطة للهرب . وأن علي أن أخضع للاستجواب أمام سيدي فإذا ثبت لهم زيف معلوماتهم لن يأذوني .

وفي لحظات قليلة نجحوا في تقييد جون ثم تحولوا إلى هنري الذي كان في هذا الوقت عائداً لتوه وأمروه أن يضع يديه فوق بعضهما كصليب ، فقال في لهجة واثقة تشير إلى استعداده لأي نتائج .

« لن أفعل » . .

قال المفتش توم إبراهام .

« لن تفعل ؟! »

قال هنري في لهجة قوية .

« لا . لن أفعل » .

عند هذا الحد أخرج اثنان من المفتشين مسدسيهما اللامعين وأقسما بالله الذي خلقهما أنه سيفعل والا سيقتلانه . ثم وضع كل منهما أصبعه فوق الزناد ومشيا ناحية هنري وقالا معاً إنه إن لم يفعل سيطلقان النار على قلبه الشيطاني . لكن هنري هتف للجميع . . . .

« اقتلوني . اقتلوني . . تستطيعون قتلي في الحال . . اقتلوني . .

اقتلوني عليكم اللعنة ولكن لن تقيدوني » .

وفي نفس الوقت ، وبحركة أسرع من الضوء ضرب المسدسين فطارا بعيداً لكن تهاوت كل الأيدي فوقه بـالضرب وتغلبـوا في النهايـة على قـوته وقيدوه .

حـدث أني خلال المنـاوشة التي أبـديتها لم أعـرف كيف أتخلص من نصريحي ، والآن دون أن يكتشفني أحد القيتـه ، إلى النيران . وبعـد أن اصبحنا جميعاً مقيدين لترحيلنا إلى سجن ايستون ، اقبلت بيتسي فريلاند ، أم وليام فريلاند ، نحو الباب تحمل بسكويتا بين يديها ، وقسمته بين هنري وجون ثم خاطبتني قائلة « أنت شيطان ! أنت شيطان أصفر ! أنت الـذي غرست الهرب في رأسي هنري وجون . أنت أيها الشيطان الخلاسي طويـل الساقين !!، لا هنري ولا جون كان يفكر في مثل هذا العمل » .

لم أجبها بشيء ، وبسرعة دُفعنا في اتجاه سانت ميشيل . لقد حـدث أن مسـتر هاملتـون اقترح قبـل المعـركـة مـع هنـري ضـرورة البحث عن التصاريح التي فهم أن فريدريك هو الذي كتبها لنفسه وللباقين ، لكن في اللحظة التي كان فيها على وشك تنفيذ اقتراحه حدثت المعركة مع هنري ، وجعلته المعركة المثيرة ينسى ، أو ربما اعتقد أنه من الخطر في هـذه الظروف البحث عن التصاريح ، ومن ثم لم يكن هناك دليل حتى الآن على نيتنا على الهرب .

حين قطعنا نصف الطريق تقـريباً إلى سانت ميشيـل ، وبينما كـان المفتشون الذين يقودوننا يتطلعون إلى الأمام سألني هنري ماذا عليه أن يفعل بتصريحه . قلت له أن يأكله مع البسكويت ولا يعترف بشيء . . ثم مرَّرنا فيما بيننا جملة « لا تعترف بشيء . لا تعترف بشيء وبدا واضحاً أنه لن تهتز ثقتنا في بعضنا . . لقد قررنا أن ننجح أو نفشل معاً بعد أن حلت بنا المصيبة الكبرى . اصبحنا مستعدين لأي شيء . . كان يجب جرنا ذلك الصباح لخمسة عشر ميلاً خلف الجياد ثم وضعنا في سجن ايستون . وحين وصلنا الى مزرعة سانت ميشيل خضعنا جميعاً للتفتيش والاستجواب ، فانكرنا أننا

نوينا الهرب . أكدّنا على ذلك لنبعد عن أنفسنا التهمة فقط أكثر من أملنا في عدم بيعنا ، ذلك لأننا ، كما قلت ، كنا مستعدين له . والحقيقة أننا لم نهتم كثيراً بما سيحدث لنا طالما نكون معاً . كان همنا الأكبر هو الانفصال عن بعضنا . لقد خفنا من ذلك أكثر من أي شيء . لقد كان الدليل ضدنا شهادة من شخص واحد لم يفصح سيدي عن اسمه ، ولكننا وصلنا إلى قرار ألا تقوم العداوة بيننا بسبب هذا المخبر المجهول .

ووصلنا إلى سجن ايستون حيث استلمنا المأمور مستر جوزيف جراهام الذي وضعنا بنفسه في الزنزانات . وضعني وهنري وجون في زنزانة معاً ، وتشارلس وهنري بايلي في أخرى ، وكانوا يقصدون بفصلنا هذا إعاقة أي فرصة للاتفاق على شيء .

بعد عشرين دقيقة فقط من دخولنا السجن أقبلت مجموعة من تجار العبيد ووكلاء تجار العبيد ليلقوا نظرة علينا وليتأكدوا مما إذا كنا معروضين للبيع . كانوا مجموعه من المخلوقات التي لم أر مثلها من قبل !.. شعرت بنفسي محاطاً بزبانية جهنم . حزمة من اللصوص لا تزيد في الصورة عن الشيطان . لقد ضحكوا منا وزأروا يخاطبوننا .. « أوه .. أولادنا ! لقد أمسكنا بكم أليس كذلك ؟ » وبعد أن سخروا منا بطرق مختلفة تقدموا واحداً فواحد لفحصنا بقصد تحديد قيمتنا . وبوقاحة سألونا ما إذا كنا نكره أن يكونوا أسيادنا . لم نجبهم وتركناهم يكتشفون ما يريدون . حينئذ لعنونا وأقسموا لنا أنهم يستطيعون اخراج الشياطين من جسومنا في لحظة واحدة إذا وقعنا في ايديهم ..

لقد وجدنا السجن أكثر راحة مما توقعنا... حقاً لم يكن الطعام كافياً ولا جيداً ، ولكن كان لدينا غرف نظيفة ، ومن النافذة كنا نستطيع أن نرى ما يجري في الشارع ، وكان هذا أفضل مما لو وضعنا في زنزانة مظلمة رطبة ، كما أننا عوملنا معاملة طيبة من السجان .. وبعد اجازة عيد القيامة، وعكس كل توقعاتنا أتى مستر هاملتون ومستر فريلاند وأخذا الجميع ليعيدوهم إلى المزرعة ، وتركوني وحدي . اعتبرت هذا الفصل بيننا هو

النهاية . . وسبب ذلك ألماً أكثر من اي شيء جرى في حياتي . . كنت مستعداً لأي شيء خلا هذا الفصل بيننا ، فكرت أنهما - هاملتون وفريلاند - لا بد تشاورا معاً وقررا ذلك حيث وجدا أني السبب الرئيسي في نية الآخرين على الهرب ، وأنه من الصعب أن يعاني البريء من ذنب غيره ، ولذلك انتهيا إلى إعادة الآخرين وبيعي كتحذير لهم . إن من حق هنري النبيل أن أقول أنه كان كارهاً لمبارحة السجن بالضبط كما بدا كارهاً لمبارحة المزرعة والانتقال إلى السجن . لكن كنا قد أدركنا أننا سننفصل حتما إذا تم بيعنا ، ومن ثم فإنه حين تمكنوا منه استسلم عائداً

الآن تركت أواجه مصيري وحدي داخل جدران السجن الحجرية . لأيام قليلة مضت كنت مفعماً بالأمل . وتوقعت النجاة إلى أرض الحرية ، والآن يدثر في الظلام ويجعلني أغرق إلى أعماق اليأس . فكرت أن امكانية الحرية قد ولّت ، وبقيت على هذا الحال أسبوعاً حضر في نهايته الكابتن أولد ، سيدي ، وأدهشني وفاجأني تماماً أنه جاء ليأخذني ، وفي نيته بعد ذلك أن يرسلني مع رجل طيب من معارفه إلى ولاية آلاباما . لكن لسبب أو آخر لم يرسلني الى الاباما ، وانتهى إلى ارسالي مرة أخرى إلى بالتيمور لأعيش من جديد مع أخيه هوف ، ولأتعلم حرفة .

وهكذا بعد غياب لثلاث سنوات وشهر واحد سمح لي بالعودة إلى بيتي القديم في بالتيمور . لقد خاف سيدي عليَّ أن أقتل بعد ما جرى مني ، لذلك أرسلني إلى مكان بعيد آمن .

بعد اسابيع قليلة من ذهابي إلى بالتيمور أجرني السيد هوف إلى مستر ويليام جاردنر ، باني السفن الكبير في فيلزبوينت . كان الاتفاق أن أتعلم « جلفطة » السفن . وكان المكان غير مريح لهذا العمل . لقد كان مستر جاردنر مشغولاً هذا الربيع في بناء سفينتين حربيتين كبيرتين خصيصاً للحكومة المكسيكية ، وينص الاتفاق على تدشينهما في يوليو من نفس العام ، وإذا فشل مستر جاردنر في ذلك وتأخر عن موعده فسيدفع غرامة تكلفه كثيراً . ومن ثم حين بدأت العمل كانت هناك حالة من السعار في

الإنجاز . لم يكن هناك وقت لأتعلم شيئاً . وحين دخلت إلى الترسانة كانت أوامر مستر جاردنر أن أفعل كل ما يأمرني به النجارون . ولقد جعلني هذا رهن الاشارة والنداء من قبل خمسة وسبعين رجلاً كان علي أن أعتبرهم جميعاً أسياداً لي . كانت كلمتهم لي قانوناً ، وصار موقفي أخطر المواقف . في أوقات كنت أحتاج إلى أربعة وعشرين ذراعاً . كنت أتلقى دستة من النداءات في الدقيقة . كانت ثلاثة أو أربعة أصوات تصل اذني في اللحظة الواحدة . « فريد . تعال ساعدني على إمالة هذا اللوح هناك » . « فريد أحضر هذه الاسطوانة هنا . . » فريد اذهب واحضر لنا زجاجة مياه نقية » . . « فريد تعالى ساعدني في نشر هذا اللوح » . . « فريد اذهب بسرعة واحضر الأجنة » « فريد امسك هذه النهاية » « فريد اذهب إلى دكان الحداد واحضر لنا مثقاباً جديداً » . « هيا يا فريد ! . إجرِ احضر لي أجنة باردة » . « فريد أشعل النار بأسرع ما يمكن تحت الغراء » . « أهلاً يا زنجي ، تعالى أدر هذا الجلخ » « تعال . . تعال ! تحرك تحرك ! وأمِل هذا اللوح من الأمام » . « أقول لك يا أسمر ، تنفقىء عيناك ، لماذا لا تسخن بعض الزفت » . « أهلاً . . أهلاً ! أهلاً ـ ثلاثة أصوات معاً ـ تعال هنا . . اذهب هناك . . قف حيث أنت عليك اللعنة إن تحركت . . سوف أدق مخك ! » .

كانت هذه مدرستي لثمانية أشهر ، وكان علي أن أبقى هناك مدة اطول لولا معركة مرعبة جرت بيني وبين أربعة من الصبية البيض فقدت تقريباً فيها عيني اليسرى ، وأصبت في أماكن أخرى من جسدي بشكل مخيف . في الترسانة يعمل نجارو السفن البيض والسود جنباً إلى جنب ولا يبدو أن أحداً يرى غضاضة في هذا . الجميع يبدون راضين جداً . .

كان الكثيرون من النجارين السود أحراراً . وبدا كل شيء سائراً في طريقه بلاعقبات،وفجأة اضرب النجارون البيض وقالوا إنهم لن يعملوا مع الأحرار الملونين ، وكانت علتهم إنه إذا ما تشجع النجارون السود فحالا ما سيسيطرون على النجارة وسيلقى بالرجال البيض التعساء خارج العمل ،

لذلك تنادوا فوراً إلى وضع حد لهذا . لقد انتهزوا فرصة حاجة مستر جاردنر وأضربوا عن العمل واقسموا أنهم لن يعودوا حتى يطرد النجارين السود .

ورغم أن هذا لا ينسحب عليّ من ناحية الشكل فلقد وصلني وأصابني في الصميم ، فحالما شعر رفاقي البيض من الصبية أنه شيء حقير لهم أن يعملوا معي ! بدأوا يتحدثون عن الزنوج ويقولون إنه يجب قتلنا جميعاً، وشجعهم في ذلك العمال الاجراء فبدأوا في التضييق عليّ بأقصى ما يستطيعون وذلك بمعايرتي في كل مكان وأحياناً بضربي . وكنت أنا ، ما زلت أحفظ العهد الذي قطعته على نفسي بعد معركتي مع مستر كوفاي ، لذلك دافعت عن نفسي ورددت لهم الضرب دون اعتبار لأي عاقبة . لقد عملت على أن أنفرد بكل منهم ، فهذه هي الطريقة الناجحة في مواجهتهم ، والتي بها أستطيع جلدهم جميعاً واحداً فواحداً إذا أردت . لكن في النهاية اتحدوا وأتوني معاً مسلحين بالعصي والأحجار والشوك المعدنية الطويلة وحاصروني . من الأمام سد علي الطريق واحد يمسك بنصف قالب من الحجر ، ووقف واحد إلى جانبي والآخر خلفي . كنت مركزاً انتباهي على الذي أمامي والذي إلى جانبي ، فنجح الذي خلفي في ضربي ضربة ثقلة فوق رأسي بالشوكة المعدنية الطويلة ، فأداخني وسقطت على الأرض. حينئذ جروا جميعاً نحوي وانهالوا عليّ ضرباً بكل قبضات أيديهم ، وتركتهم فوقي بعض الوقت واستجمعت قوتي ، وفي لحظة انتفضت من تحتهم مرتفعاً على يدي وركبتي ، لكن أحدهم صوب إلي ركلة قوية بحذائه الثقيل أصابت عيني اليسرى . بدا أن عيني قد انفجرت ورأوها مغلقة متورمة بشكل بشع فتركوني . استطعت الإمساك بالشوكة وملاحقتهم ، وهنا تدخل النجارون البيض ومنعوني . فكرت أنه من الأفضل أن أسلم بما حدث . من المستحيل أن أقف وحدي أمام هذا العدد ، خاصة وأن ما حدث جرى أمام ما لا يقل عن خمسين من نجاري السفن البيض الذين لم يفه واحد منهم بكلمة واحدة طيبة بل صاح بعضهم قائلاً : اقتل الزنجي الشيطان . اقتله . اقتلوه فقد ضرب شخصاً أبيض . . وهكذا كانت فرصتي في النجاة

هي التوقف عن ملاحقتهم . هكذا نجوت من ضرب جديد ، وبصراحة أكثر فإن ضرب الرجل الأبيض يعني موتي بقوانين لينش(*) . وكان هذا هو القانون في ترسانة مستر جاردنر ، كما أنه يوجد الكثيرون خارج ترسانة مستر جاردنر مستعدين لتنفيذه .

توجهت مباشرة إلى البيت وحكيت القصة للسيد هوف ، وإني لسعيد أن أقول عنه هو الرجل غير المتدين ، انه عاملني بطريقة سماوية بالمقارنة بما فعله أخوه توماس في ظروف مماثلة . لقد استمع بانتباه إلى القصة كلها من بدايتها حتى نهايتها الوحشية ، وأبدى كثيراً من دلائل الغضب الشديد . في الوقت الذي ذاب فيه قلب سيدتي التي كانت مرة شديدة الرقة ، شفقة من جديد . . لقد حركت عيني الجاحظة والدم الذي يغطي وجهي دموعها ، فاتخذت مقعداً جواري وأخذت تغسل الدم عن وجهي ، وبرقة أم ، عصبت رأسي وغطت عيني الجريحة بقطعة رقيقة من لحم البقر الطازج !. كان هذا تقريباً تعويضاً عن آلامي ، فها أنذا أرى سيدتي القديمة التي كانت عطوفاً ذات مرة ، تتجسد فيها الرقة وطيبة القلب من جديد . . .

لقد كان مستر هوف غاضباً بحق ، وعبر عن مشاعره بصب اللعنات على رؤوس مرتكبي الجريمة . وبينما كنت أتحسن شيئاً فشيئاً صحبني إلى مستر « واطسون » أحد الوجهاء في « بوند ستريت » ليرى ما يمكن عمله ، سأل مستر « واطسون » عن الذين رأوا الهجوم علي . أخبره مستر هوف أن ذلك حدث في ترسانة مستر جاردنر في وضح النهار حيث كان هناك عدد كبير من الرجال يعملون ثم قال « وهكذا وقعت الحادثة ولم يسأل أحد عن مرتكبها » . وكانت اجابة مستر واطسون أنه لا يستطيع عمل شيء في القضية إذا لم يأت بعض الرجال البيض للشهادة . ولم يجد مبرراً على كلامي وقال إنني إذا قتلت في حضور ألف من الملونين فإن شهادتهم لا تكفي

(*) نسبة إلى القاضي شارلز لينش الذي ترأس محكمة غير قانونية لمنع نشاط « المحافظين » من الولايات المتحدة، لكن التعبير أصبح يستخدم للدلالة على تنفيذ الحكم بالاعدام أو غيره من العقوبات دون محاكم فيقال: الليِنشية Lynching .

للقبض على واحد من القتلة . وفي الحال وجد مستر هوف نفسه مجبراً على القول بأن هذا وضع سيء جداً للأمور . وبالطبع كان من المستحيل أن نحصل على رجل أبيض واحد يتطوع بشهادته لصالحي وضد الصبية البيض . وحتى لو وجد من يتعاطف معي فلن يكون مستعداً لمثل هذا العمل ، فهذا يحتاج درجة من الشجاعة غير معروفة عند البيض حيث كان أقل مظهر انساني يتخذ في ذلك الوقت إزاء شخص ملون يكون محل استنكار كبير ، مثله مثل الدعوة لإلغاء الرق الذي كان اسمها يثير الفزع . لقد كانت شعارات أولئك الناس ذوي العقول الدموية في تلك الأيام هي « اللعنة على دعوة الغاء الرق » اللعنة على الزنوج ، ولم يكن هناك شيء يمكن عمله إذا ما كنت قتلت . هكذا كانت ، وهكذا تبقى ، حالة الأشياء في المدينة المسيحية بالتيمور .

حين وجد مستر هوف أنه ليس بامكانه الحصول على حقي ، رفض أن يتركني أعود مرة ثانية إلى مستر جاردنر . ابقاني لنفسه واعتنت زوجته بجروحي حتى استعدت صحتي تماماً . . . حينئذ أخذني إلى الترسانة التي يعمل فيها ملاحظاً في خدمة مستر والتر برايس حيث بدأت حالاً في تعلم الجلفطة ، وسرعان ما تعلمت فن استخدام مطرقتي الخشبية مع الحديد ، حتى أنني خلال عام واحد من مفارقتي لمستر جاردنر أصبحت قادراً على أن أحدد لنفسي أعلى أجر يقدم إلى أكثر العمال خبرة .

اصبحت الآن لي بعض الأهمية عند سيدي . فأنا أحضر له كل أسبوع ستة أو سبعة دولارات وأحياناً تسعة . أصبح أجري دولاراً ونصف عن اليوم الواحد . بعد أن تعلمت الجلفطة كنت أبحث بنفسي عن العمل ، وأحدد العقد ، وأجمع النقود التي أكسبها . أصبح طريقي أكثر سلاسة عن ذي قبل وأصبحت ظروفي أكثر راحة . وكنت حين لا أجد عملاً في الجلفطة لا أعمل شيئاً آخر . وتعود التصورات القديمة عن الحرية تستحوذ علي . خلال عملي مع مستر جاردنر كنت غارقاً في تلك السلسلة من التوترات ، ولم أكن بقادر على أن أفكر في شيء إلا حياتي ، وفي تفكيري

في حياتي تقريباً أنسى حريتي . لقد راقبت هذا في نفسي خلال خبرتي مع العبودية ، فحيثما تتحسن ظروفي لا تزيدني رضا بل تزيد فقط من رغبتي في أن أكون حراً ، وتجعلني أفكر في التخطيط لاكتساب هذه الحرية . أدركت أنه كي تصنع عبداً قانعاً فمن الضروري أن تصنع عبداً لا يفكر. من الضروري أن تغرق رؤيته الأخلاقية والعقلية في الظلام ، وبقدر اعدام قوة العقل لن يكون قادراً على اكتشاف أي عيوب في نظام العبودية ، بل سيشعر بالعبودية وضعاً صحيحاً ويتوقف عن أن يكون انساناً . .

إنني أحصل الآن كما قلت على دولار وخمسين سنتا كل يوم . أنا الذي تعاقدت عليها واكتسبتها . لقد دفعت إليّ أنا فهي اذن وبشكل صحيح ملكي . ولكن كلما دار يوم السبت وجاء مساؤه كنت مجبراً أن أسلم كل سنت من نقودي إلى مستر هوف . لماذا ؟ ليس لأنه هو الذي اكتسبها ، ولا كانت له يد في اكتسابها ، ولا لأني مدين له بها ، ولا لأنه يمتلك أقل ظن من الحق فيها ، ولكن فقط لأن لديه القوة على ارغامي على تسليمها له . نفس حق القرصان المكفهر الوجه في أعالي البحار . . .

الفصل الحادي عشر

لقد وصلت الآن إلى ذلك الجزء من حياتي الذي فيه خططت ، ونجحت أخيراً في صنع هروبي من العبودية . لكن قبل أن أحكي أياً من الظروف الخاصة بذلك أعتقد أنه من الصحيح أن أوضح أنه ليس في نيتي توضيح كل الحقائق المتصلة بالهروب . وأسبابي في ذلك يمكن فهمها من الآتي .

أولاً ، إذا قدمت تقريراً دقيقاً يشمل كل الحقائق فمن الممكن بل ومن المحتمل أن تستغرق الآخرين المصاعب التي لاقيتها فتفت من عزيمتهم . .

ثانياً ، فإن مثل هذا التقرير سيثير بلا شك انتباه ملاك العبيد مما يجعلهم يشددون حراستهم على أي باب قد يهرب منه بعض اخوتي الاعزاء الراسفين في القيود .

إن أسفي لعميق لأن هناك ضرورة تكرهني على قمع أي شيء له أهمية متصلة بتجربتي في العبودية . انه لشيء يبعث السرور العظيم إلى نفسي بلا شك ، أن يحتوي هذا السرد على حقائق عملية تشبع حب الاستطلاع ، الذي أعرف أنه موجود في عقول الكثيرين ، لمعرفة كل الحقائق المتصلة بهروبي الناجح ، . لكن علي أن أحرم نفسي من هذه المتعة ، والتطلع إلى الإشباع الذي قد تقدمه مثل هذه الحقائق . سأترك نفسي تعاني من

الاتهامات الكبرى التي قد يقدمها بعض الرجال من ذوي العقول الشريرة ، بدلاً من الفخر بنفسي ، وبهذا لا أقع في خطر اغلاق الطريق الصغير الذي قد يحرِّر أخي العبد نفسه من خلاله من قيود العبودية .

إنني لا أوافق أبداً على السلوك العام لبعض أصدقائنا من الغرب بخصوص ما أسموه « بالطريق السري » الذي أعتقد أنهم باصرارهم المستمر على الاعلانات المفتوحة عنه جعلوه طريقاً علنياً . . إنني أفخر بأولئك الرجال والنساء لنبل قدراتهم ، وأصفق لهم لأنهم بارادتهم كانوا مادة للاضطهاد الديني والسياسي الأحمق بسبب مشاركتهم العلنية في هروب العبيد . . ورغم ذلك أرى نتائج قليلة لهذا العمل سواء بالنسبة لهم أو للعبيد الهاربين . بل وأرى أن الاعلانات الواضحة مصدر شر حقيقي لبقية العبيد الذين يتطلعون للهرب . انهم لا يفعلون شيئاً لتنوير عقول العبيد بينما يفعلون الكثير لتنوير عقول الأسياد . فهم يدفعونهم لمراقبة أعظم وتركيز أكبر للقوة من أجل حصار العبيد . على أن أبقي ذلك السيد الذي لا يرحم ، جاهلاً تماماً بوسائل الهرب التي يتبناها العبيد . على أن أتركه يتخيل نفسه محاطاً بالجم الغفير من الجلادين المستعدين لالتقاط فريسته المرتعشة من قبضته المميتة . ولتدعه يتحسس طريقه في الظلام ، ولتتناسب الظلمة مع جريمته المحلقة فوق رأسه ، ودعه يشعر أنه في كل خطوة يخطوها متعقباً العبد الهارب ، فإنما يواجه الخطر المرعب من تحطم رأسه بقوة غير منظورة . دعنا نترك الطاغية بلا عون ، ودعنا نسلط النور الذي يستطيع به أن يتعقب آثار خطى أخينا الهارب . ولأتوقف عن هذا . .

سأعود الآن إلى رواية تلك الحقائق المرتبطة بهروبي والتي تقع مسؤوليتها عليّ وحدي ، والتي لن أتسبب بالحديث عنها في أن يعاني أحد أي ألم . . .

(*) الطريق السري أو « خط القطار السري » هو الترتيبات التي كان يقوم بها أنصار تحرير العبيد في الولايات المتحدة قبل ١٨٦٣ تاريخ اعلان تحرير العبيد والتي كانت تمكن العبد من الهرب من المزارع الجنوبية إلى الولايات الشمالية وكندا .

في أوائل عام ١٨٣٨ سيطر علي القلق تماماً . لم أر أي سبب يجعلني في نهاية كل أسبوع أضع مكافآتي التي شقيت من أجلها في خزانة سيدي . لقد كنت أقدم له النقود فيحصيها وينظر إلى وجهي بوحشية لص ويسأل « هل هذا كل شيء ؟ » . ولم يكن يرضى بأقل من السنت الأخير ، ثم يعطيني ستة بنسات ليشجعني ! . . لكن كان لهذا أثره العكسي في نفسي ، فلقد اعتبرت ما يفعله سلباً لحقّي في كل ما كسبته ، وكونه يعطيني جزءاً من أجري يثبت لي أنه يعرف أن من حقي المطالبة بها كلها . وكنت أستلم منه هذا المبلغ الضئيل متضايقاً متوجساً من أن ذلك يخفف عنه تأنيب الضمير ، بل ويجعله يشعر بنفسه لصاً ظريفاً شريفاً . نما في داخلي الغضب ، وتطلعت حولي أبحث عن سبل الهرب وفكرت في أن أؤجر نفسي منه حتى أحصل على المال الكافي لمهمتي . وفي ربيع نفس العام أتى السيد توماس إلى بالتيمور لبيع محصوله ، فكانت فرصة رجوته فيها أن يسمح لي أن أؤجر نفسي ، لكنه رفض الطلب بلا تردد ، وأخبرني أن هذا نوع آخر من التخطيط للهرب ثم قال إنه لا يوجد مكان يمكن أن أذهب إليه ويعجز عن استعادتي منه ، وأنه في حالة هروبي لن يدخر جهداً في الإمساك بي ، ثم أوصاني أن أكون راضياً عن نفسي وأكون مطيعاً ، وإنني إذا أردت السعادة الحقيقية فيجب أن أتخلى عن أي خطط بشأن المستقبل ، ثم قال إنني إذا تصرفت على هذا النحو وأصبحت سوياً سوف يهتم بي .

لقد كان مستر توماس يريدني حقاً أن لا أفكر بشأن المستقبل ، وأن أعتمد عليه فقط لاسعادي ، وأن أتخلى تماماً عن طبيعتي كإنسان عاقل . إن النتيجة الوحيدة لذلك هي الرضا عن العبودية ، لكن رغماً عنه ، ورغماً عن نفسي أيضاً ، واصلت التفكير والتفكير في الظلم الواقع علي بالاستعباد ، وفي وسيلة للهرب .

بعد ذلك بشهرين أوضحت لمستر هوف ميزة أن يتركني أؤجر نفسي ، ولم يكن يعلم بأني طلبت ذلك من قبل من مستر توماس وأنه رفضه . بدا مستر هوف ميالاً للرفض لكن بعد قليل من التأمل وافق واقترح أن يسمح

لي بكل وقتي ، وأن أقوم أنا بالاتفاقات وأبحث أنا عن العمل ، وبناء على هذه الحرية أدفع له ثلاثة دولارات أسبوعياً ، ولا يتحمل هـو أي شيء في تكاليف أدوات الجلفطة ولا الطعام ولا الثياب . .

كان طعامي يتكلف دولارين ونصف في الأسبوع ، وإذا أضفنا إليـه قيمة الثياب وأدوات الجلفطة فإن التكلفة تصبح ستة دولارات أسبوعيـاً ، وهذا يعني أن علي أن أوفر هذا المبلغ ، بالإضافة إلى ما أدفعه له ، بالإضافة إلى ضرورة احساسي بميزة أني أعمل لحسابي فيبقى لي شيء أدخره . وسواء وجدت عملاً أم لا ، أمطرت الدنيا أم سطعت الشمس ، علي أن أقدم له نصيبه في نهاية كل أسبوع .

إنه اتفاق في صالح سيدي تماماً ، فهو يحرره من كل مسؤولية للعناية بي ، ويضمن له نقوده إنه يستفيد من كل ميزات تملك العبد ويترك كل عيوبها لي . لقد وجدت الاتفاق صعباً لكني اعتقدت أنه أفضل من الطريقة القديمة . فكرت أنها خطوة نحو الحرية أن يسمح لي أن أتحمل مسؤوليات رجل حر ، وصممت أن أمسك بالفرصة . هيأت نفسي لها وكنت مستعداً للعمل بالليل والنهار وبمواظبة وجهد لا يتوقفان ، واستطعت أن أدخر قليلاً كل أسبوع . استمر الحال على هذا النحو من شهر مايو إلى شهر أغسطس حين رفض مستر هوف أن يستمر الاتفاق . كان السبب في ذلك أني تأخرت في دفع نصيبه مساء أحد أيام السبت حيث كنت في عمل يبعد عن بالتيمور بحـوالى عشرة أميـال اتفقت عليه خـلال الأسبوع مـع بعض الأصدقاء . كنت أعرف أن مستر هوف ليس في حاجـة ماسـة للنقود تلك الليلة فضلاً عن أن صاحب العمـل لم يتركني أعـود وحدي قبـل أن ينتهي عملنا جميعاً . عندما عدت وجدت مستر هوف غاضباً جداً وغير قـادر على كبح جماح غضبه ، وقال إنه فكر أكثر من مرة أن يجلدني وأنه يريد أن يعرف كيف جرؤت على مغادرة المدينة دون إذن منه . قلت إني قـد أجرت نفسي منه وإني أدفع له ثمن ذلك ولم أعرف أنه كان يجب علي أن أستأذنه . اربكته هذه الاجابـة وفكر قليـلاً ثم قال إن ذلـك لن يتكرر ، وأنـه يعرف أن مـا

سأفعله بعد ذلك هو الهرب ، ثم أمرني أن أحضر أدواتي وثيابي إلى البيت فوراً . فعلت ما أمرني به ثم أمضيت الأسبوع التالي كله بلا عمل ولا محاولة للبحث عن عمل كنوع من الانتقام منه . في مساء السبت دعاني كالمعتاد ليأخذ أجر الأسبوع . أخبرته أني لم أعمل وليس معي شيء فانفجر الموقف . هاج وأقسم وألح في القسم أن يقيدني . لم أرد بكلمة واحدة ولكني فرحت في نفسي أن تكون الضربة بالضربة . ولم يفعل شيئاً بل وأخبرني أنه سيجد لي عملاً لا ينقطع . في اليوم التالي أدركت أن الموضوع قد انتهى تماماً وقررت أن يكون اليوم الثالث من شهر سبتمبر هو يوم محاولتي الثانية للحصول على حريتي . كان بيني وبين هذا اليوم ثلاثة أسابيع أستطيع خلالها أن أتجهز لرحلتي . مبكراً صباح الاثنين وقبل أن يجد مستر هوف شيئاً يشغلني به خرجت ووجدت عملاً عند مستر بتلر حيث تقع ترسانة بالقرب من الجسر المتحرك فيما يسمى بمجمع المدينة وهكذا أعفيت مستر هوف من البحث عن عمل لي . في نهاية الأسبوع سلمته ما بين ثمانية وتسعة دولارات فبدا مسروراً جداً وسألني لماذا لم أفعل نفس الشيء في الاسبوع المنصرم . لم يكن يعرف خططي وأن غرضي من العمل بانتظام هو أن أزيل عنه أية هواجس قد تنتابه في هربي وأية شكوك نحوي . ولقد نجحت في ذلك إلى درجة تثير الاعجاب . لقد جعلته يعتقد أني لم أكن راضياً قط بحالتي مثل هذا الوقت ، وفي نهاية الأسبوع الثاني حملت اليه كل أجري مما أزاد في سروره وجعله يعطيني خمسة وعشرين سنتاً ـ وهي كمية كبيرة جداً لا يعطيها مالك لعبد ـ ونصحني أن أصرفها كلها وأخبرته بأني سأفعل .

لقد مر ذلك كله سهلاً حقاً لكن داخله كانت الأزمة . وليس سهلاً علي أن أصف مشاعري مع اقتراب الوقت . لقد كان لي أصدقاء في بالتيمور . أصدقاء أحببتهم تقريباً كما أحببت نفسي . وكانت فكرة رحيلي عنهم إلى الأبد مؤلمة بشكل لا يوصف . انني أعتقد بأن آلافا يستطيعون الهرب من جحيم العبودية ، ولا يفعلون بسبب الروابط القوية من العواطف التي تربطهم بأصدقائهم . لقد كانت فكرة ترك أصدقائي تقف في وجه

قراري أكثر من أي شيء آخر . زد على ذلك الرعب من الفشل السابق والهزيمة العظيمة التي منيت بها من قبل والتي عادت تعذبني . كنت على يقين بأني لو فشلت هذه المرة فلا أمل لي وسأظل عبداً إلى الأبد . ولم يكن الأمر يحتاج إلى خيال لأدرك المشاق المفزعة التي علي أن أواجهها إذا فشلت. أمامي كان بؤس العبودية وبركة الحرية يسببان لي الارتباك . الموت والحياة في طريقي ، لكني لم أتزحزح عن قراري . وفي اليوم الثالث من سبتمبر من عام ١٨٣٨ حطمت قيودي ، ونجحت في الوصول إلى نيويورك دون أي عقبات من أي نوع . كيف فعلت ذلك ؟ . . . أي الطرق تبنيتها ؟ أي اتجاه أخذته في السفر ؟ أي وسيلة نقل ؟ ليظل هذا كله بلا شرح للأسباب التي ذكرتها سابقاً .

لقد سُئلت كثيراً عن شعوري حين وجدت نفسي في ولاية حرة ، ولم أكن قط قادراً على الاجابة بما يرضي نفسي . لقد كانت لحظة الإثارة العظمى التي لم أجربها من قبل . فكرت مرة في أن شعوري كشعور بحار أعزل ينقذه صديق من مخالب قرصان . وقلت مرة لصديق فور وصولي لنيويورك اني شعرت شعور الهارب من الأسود الجائعة . لكن هذه الحالة العقلية سرعان ما انجلت ، ومرة أخرى خيم علي شعور بالخوف والوحدة . ففي نيويورك كنت ما زلت معرضاً للاعادة الى عذاب العبودية . كان هذا في ذاته كافياً ليطفىء حماسة بهجتي. في نيويورك أنا في وسط الآلاف من الغرباء لا بيت لي ولا أصدقاء، وفي وسط الآلاف من اخوتي من الأطفال لأب مشترك(*) ولا أقدر أن أبوح لأي منهم بحالتي التعسة . كنت خائفاً من الحديث لأي شخص خشية أن يكون الشخص غير المطلوب فأسقط في يد محبي المال من الخاطفين الذين كان عملهم هو الكمون في انتظار أي هارب والوثوب عليه كما تفعل الوحوش الضارية في الغابة وهي تنتظر فريستها . لقد كان الشعار الذي تبنيته حين بدأت رحلتي هو (لا تثق بأحد) ، لقد رأيت في كل

(*) الملونون من الخلاسيين مثله وهي كلمة لها مغزاها فالآباء البيض لا يعترفون بالأبناء السود والأب الأبيض قد يكون له عشرات من الأبناء السود .

رجل أبيض عدواً ، وفي كل رجل ملون حالة من عدم الثقة . لقد كان ذلك موقفاً من أكثر المواقف ايلاماً ولفهمه يحتاج المرء إلى تجربته أو يتخيل نفسه في نفس ظروفه. دعه يصبح عبداً هارباً في أرض غريبة سكانها من الخطافين الذين يعملون في ظل القانون حيث في كل لحظة يتعرض للخوف البشع من أن ينقض عليه مطاردوه مثلما ينقض الثعبان على فريسته . أقول دعه يضع نفسه في موضعي . دون بيت أو أصدقاء ، دون مال أو عمل ، يحتاج إلى مأوى ولا أحد يقدمه له ، يحتاج إلى طعام ولا أحد يشتريه له ، وفي نفس الوقت يشعر بأنه ملاحق من الذين لا يرحمون من المطاردين . ظلام شامل أمام عينيه فلا يعرف أين يذهب أو أن يستقر ولا وسائل للدفاع أو الهرب ، وفي وسط الوفرة من الطعام تعضه أنياب الجوع ، وفي وسط البيوت العامرة لا بيت له، وحوله الشباب والرجال فيشعر كما لو كان بين وحوش ضارية لها شهوة في التهام الخائف الهارب الجوعان مساوية لشهوة وحوش الأعماق حين تلتهم السمك الصغير العاجز الذي تعيش عليه ! أقول دعه يضع نفسه موضعي ويقدر تماماً المصاعب التي أعيشها ، ويتعاطف مع العبد الهارب الفزع من الجلد ، والممزق الثياب الشقي . . .

لكن شكراً للسماء فلم أبق طويلاً في هذا الوضع الضاغط . لقد انتشلتني منه اليد الانسانية للسيد ديفيد روجليز الذي لن أنسى أبداً طيبته ومثابرته . انني سعيد من فرصة التعبير بأقصى ما تستطيع الكلمات عن الحب والامتنان اللذين أحملهما له . لقد ابتلي مستر روجليز الآن بالعمى وهو يحتاج إلى نفس الأعمال الطيبة التي كان يوماً في طليعة المؤدين لها للآخرين . لقد أخذني إلى منزله . وكان وقتها مشغولاً بقضية دارج المشهورة في نفس الوقت الذي يقدم فيه النصح لعدد من العبيد الهاربين عن الطرق والوسائل المأمونة لاتمام هروبهم ويقدم لهم المساعدة . وبرغم المراقبة والحصار في كل جانب فلقد كان مستر روجليز عصياً على اعدائه ناجحاً فيما يفعله .

بعد ذهابي معه بقليل سألني وجهتي حيث من الخطر بقائي في نيويورك

كثيراً . قلت انني كنت أعمل « جلفاطاً » وأحب الذهاب حيث أجد عملاً . اقترحت كندا لكنه عارضني وقال إنه من الأفضل لي الذهاب إلى « نيوبدفورد » معتقداً أني فيها أجد عملاً يناسب مهنتي في هذا الوقت جاءت « أنّا » زوجتي المرتقبة ، وكانت حرة ، وكنت كتبت اليها فور وصولي نيويورك رغم عدم وجود مأوى وبؤس حالتي ، وأخبرتها بهروبي الناجح ورغبتي في قدومها بسرعة . بعد أيام قليلة من وصولها دعا مستر روجليز القس ج . و . س بينينجتون الذي أدى شعائر زواجي من « أنّا » في حضور مستر روجليز ومسز ميشيلز واثنين أو ثلاثة آخرين وأعطانا وثيقة كتب فيها . . .

«تشهد هذه الوثيقة بأني ربطت بين فريدريك جونسون وأنّا مواري معاً كزوج وزوجة في زواج مقدس وبحضور مستر ديفيد روجليز ومسز ميشيلز» .

التوقيع
« جيمس . و . س . بينينجتون »
نيويورك في ١٥ سبتمبر ١٨٣٨

بعد عقد القران مباشرة حملنا متاعنا وتوجهنا لنبحر على القارب البخاري جون . و . ريتشموند إلى نيوبورت في طريقنا إلى نيوبدفورد . أعطاني مستر روجليز خمسة دولارات وخطاباً إلى مستر شو في نيوبورت ليساعدني إذا ما انتهت نقودي على اتمام الرحلة إلى نيوبدفورد . . لكن عند وصولنا إلى نيوبورت كان شوقنا كبيراً لمكان آمن ، لذلك أخذنا أماكننا في المركبة على أن ندفع أجرتنا بعد الوصول إلى نيوبدفورد ، ولم أذهب إلى مستر شو بالخطاب . لقد شجعنا على ذلك رجلان مهذبان مسافران معنا إلى نيوبدفورد عرفت فيما بعد أن اسم أحدهما هو جوزيف ريستكون والثاني ويليام . س . تابر . لقد أظهرا في الحال تفهما لظروفنا وأظهرا ودهما مما جعلنا نرتاح لوجودهما . لقد كان رائعاً حقاً أن تلتقي مع مثل هؤلاء الأصدقاء في مثل ذلك الوقت .

بعد وصولي نيوبدفورد . توجهنا مباشرة إلى منزل مستر ناتام جونسون، الذي استقبلنا جيداً وشملنا بكرمه وأبدى هو وزوجته مسز جونسون اهتماماً عميقاً براحتنا واثبتا بحق أنهما جديران باسم «محرري العبيد». كان سائق المركبة قد حجز حقيبتنا كضمان لأجرته فأخبرت مستر جونسون بذلك فأعطاني في الحال ما يلزم من نقود.

بدأنا الآن نشعر بدرجة من الأمان ، ونعد أنفسنا لواجبات ومسؤوليات الحياة الحرة . في صباح اليوم التالي لوصولنا أثيرت على مائدة الافطار قضية أي اسم يجب أن أحمله . لقد كان الاسم الذي أعطته لي أمي هو « فريدريك أوجستوس واشنجطن بايلي » ولقد تخليت أنا طويلا عن الاسمين الأوسطين قبل أن أغادر ميريلاند حتى أني عرفت دائماً باسم « فريدريك بايلي » ويوم أن هربت من بالتيمور حملت اسم « ستانلي » وفي نيويورك غيرت اسمي من جديد إلى فريدريك جونسون معتقداً أن هذا سيكون التغيير الأخير . لكن في « نيوبدفورد » بدا ضرورياً تغيير اسمي فهناك كثيرون يحملون لقب جونسون وسيكون من الصعب أن أتميز بينهم . تركت لمستر جونسون حرية اختيار اسم جديد لي على أن لا يسلبني اسم « فريدريك » إذ يجب أن أتمسك به لأن فيه احساساً بهويتي . في ذلك الوقت كان مستر جونسون يقرأ « سيدة البحيرة » وفي الحال اقترح أن يكون اسمي « دوغلاس » ومنذ ذلك الوقت وحتى الآن أحمل اسم « فريدريك دوغلاس » وحيث عرفت به بشكل واسع أكثر من غيره من الأسماء فسوف أستمر في حمله كاسم لي .

لقد خاب ظني تماماً في المظهر العام للأشياء في نيوبدفورد ! لقد كان انطباعي عن الناس وأحوالهم في الشمال خاطئاً . فلقد تصورت بغرابة شديدة حين كنت أرسف في العبودية أن الحياة في الشمال خشنة بالمقارنة بحياة ملاك العبيد في الجنوب ، إذ لا يمكن أن تكون بها نفس فخامة وأبهة وراحة الحياة . ولقد توصلت إلى هذه النتيجة من حقيقة أن أهل الشمال لا يملكون عبيداً ومن ثم فهم أفقر من أهل الجنوب ، ولن يزيدوا في مستوى

معيشتهم عن السكان من غير ملاك العبيد في الجنوب . وبشكل ما استوعبت فكرة أنه في غياب العبيد لا توجد ثروة . وهكذا توقعت في الشمال أن أقابل أيادي خشنة شقية بالعمل، وسكاناً غلاظاً يعيشون في نظام يشبه كثيراً النظام الاسبرطي ، لا يعرفون شيئاً عن البساطة والفخامة والأبهة وعظمة ملاك الجنوب . هكذا كانت ظنوني ، ولكن أي شخص رأى نيوبدفورد يدرك على الفور مدى خطأي .

في عصر يوم وصولي نيوبدفورد زرت الموانىء لألقي نظرة على صناعة السفن فوجدت نفسي محاطاً بأقوى الشواهد على الثروة نائمة فوق الأرصفة وسابحة في الجداول . رأيت عديداً من السفن من أحسن الطرز في أحسن النظم وأكبر الأحجام . وعلى اليمين واليسار كنت محاطاً بالمخازن الكبيرة ذات أوسع الأبعاد ممتلئة إلى آخر طاقتها بالضروريات ووسائل الراحة اللازمة للحياة . أضف إلى هذا أن كل شخص بدا منغمساً في عمله بلا ضجة كالتي كانت في بالتيمور . لم تكن هناك أغنيات زاعقة تصدر عن المشتغلين في تفريغ وشحن السفن ، ولم تكن هناك هتافات عالية من العمال ولكن يبدو الكل هادئين مستغرقين في أعمالهم يفهم كل منهم دوره وينجزه بهدوء وجدية تعكس اهتمامه العميق بما يفعله كما لو كان له معنى كرامته كرجل . . بدا هذا غريباً حقاً علي . ونزلت من الأرصفة دائراً حول المدينة محملقاً في دهشة واعجاب في الكنائس الرائعة والمساكن الجميلة والحدائق المزدهرة المثمرة عن آخرها التي تعكس مدى الثروة والراحة والذوق والدماثة كما لم تسبق لي رؤيته في ميريلاند المستعبدة .

كل شيء هنا نظيف جديد جميل ، وربما لا شيء من المنازل القديمة الفقيرة . ولا أرى حولي أطفالاً نصف عراة ونساء حفاة كما اعتدت أن أرى في هيلسبورو وايستون وسانت ميشيل وبالتيمور . الناس هنا أكثر صحة وعافية وسعادة وقدرة من أولئك في ميريلاند . كنت سعيداً برؤية الثروة العظيمة ولا أجد فقراً حولي يحزنني . ولكن أكثر ما أثار دهشتي وسروري كان حال الملونين. كان الكثيرون منهم مثلي هاربين من جحيم العبودية

والمطاردة . وجدت عديداً منهم لما تمضي عليهم سبع سنوات من الحرية يعيشون في أجمل بيوت ويستمتعون بكثير من وسائل الراحة في الحياة بما يفوق متوسطي ملاك العبيد في ميريلاند . ولسوف أغامر بالقول بأن صديقي مستر ناتام جونسون (الذي من أجله أستطيع القول أني كنت جائعاً فأشبعني ، عطشاناً فرواني ، غريباً فآواني) . كان يعيش في أنظف منزل ، ويتناول طعامه على أفضل مائدة ، يأخذ ويعطي ، يقرأ كثيراً من الصحف ، وأحسن من يفهم الخصائص السياسية والدينية والأخلاقية للأمة بما يفوق تسعة أعشار ملاك العبيد بمقاطعة تالبوت بولاية ميريلاند ، بالإضافة إلى أنه رجل عملي تشقى يديه بالعمل هو ومسز جونسون أيضاً . .

هنا أيضاً وجدت الملونين أنشط روحاً مما كنت أتوقع . وجدت بينهم تصميماً على حماية بعضهم البعض من الخطافين المتعطشين للدماء . وحالاً بعد وصولي حُكي لي عما يوضح هذه الروح . فقد حدث خلاف بين رجل ملون وعبد هارب فهدد الأول العبد بأنه سيرسل لسيده عن مكانه وفي الحال دعي لاجتماع بين الملونين « لعمل هام » !، وأقبل الناس في الموعد المحدد ورأس الاجتماع عجوز مهذب خطب في المجتمعين قائلاً « أيها الأصدقاء . لقد أحضرنا الخائن هنا وأوصيكم أن تخرجوه وتقتلوه » . فاندفع عدد من الحاضرين لقتل الخائن لكن بعض الحاضرين أعطوه فرصة الهرب ولم يعد يرى بعد ذلك في نيوبدفورد . . بعد هذه الواقعة لم يجرؤ أحد أن يهدد أحداً لأن العاقبة ستكون الموت .

في اليوم الثالث لوصولي وجدت عملاً في شحن سفينة صغيرة بالزيت . كان عملاً جديداً علي وقذراً وصعباً لكني مضيت فيه بقلب سعيد ويد قوية . انني الآن سيد نفسي وهذه لحظة عارمة السعادة يفهمها فقط اولئك الذين كانوا عبيداً يوماً . إنها لحظتي أنا وليس هناك السيد هوف يقف متنمراً للاستيلاء على ما أكسبه . لقد عملت ذلك اليوم بسرور لم أجربه من قبل قط . كنت أعمل لنفسي ولزوجتي وهذه نقطة بداية لوجود جديد . .

بعد أن انتهيت من هذا العمل بحثت عن عمل في الجلفطة لكن كان

هناك موقف حقود من عمال الجلفطة البيض فلم يكونوا يسمحون للسود بهذا العمل . ولقد عرفت هذه الأيام(*) . أن ذلك موقف انتهى تحت تأثير الجهود المكثفة ضد العبودية . بالطبع لم أجد عملاً ووجدت مهنتي بلا فائدة ، فألقيت بملابسي الخاصة بهذا العمل وأعددت نفسي لأقوم بأي عمل أستطيع أن أجده . ولكن مستر جونسون أعطاني بطيبة شديدة منشاراً وحاملاً وبسرعة وجدت نفسي مزدحماً بالأعمال . لم يكن عملي شاقاً جداً ولا قذراً جداً . كنت أنشر الأشجار وأجرف الفحم وأحمل الخشب وأنظف المداخن وأدحرج براميل الزيت ، وكل ذلك فعلته لحوالى ثلاثة أعوام في نيوبدفورد قبل أن أصبح معروفاً لعالم الدعوة « لإلغاء الرق » .

بعد حوالى أربعة أشهر من وصولي نيوبدفورد أتاني شاب وسألني ما إذا كنت أرغب في الحصول على جريدة « اللبياريتور » . قلت نعم ولكن لا أستطيع الاشتراك بها لكوني هارباً حديثاً من العبودية ولا أملك من النقود ما يكفي . ورغم ذلك ، أصبحت أخيراً مشتركاً فيها ، وأصبحت تصلني أسبوعياً وأقرأها كلها بمشاعر يصعب علي محاولة وصفها . أصبحت الصحيفة هي غذائي وشرابي . إن روحي لا تزال متأججة وتعاطف الجريدة مع اخوتي في القيود واحتقارها التام لملاك العبيد وبغضها الصادق للرق وهجماتها القوية على المعارضين لإلغاء الرق أشعل الفرح في روحي كما لم يحدث لي من قبل . . .

بسرعة بعد مواظبتي لقراءة اللبياريتور أصبحت لدي فكرة صحيحة جميلة عن المبادىء والمعايير وروح الإصلاح في الدعوة ضد العبودية . فهمت القضية جيداً ، وفعلت القليل ولكن بقلب طرب ، ولم أشعر بسعادة مثل سعادتي في اجتماع للدعوة لمناهضة العبودية . إنني نادراً ما أجد ما أقوله في أي اجتماع لأن ما أريد قوله يقوله غيري أفضل مني ، ولكني في هذا الاجتماع حول « اللاعبودية » والذي أقيم في نانتيكوت في ١١ أغسطس

(*) يقصد وهو يكتب هذه السيرة .

عام ١٨٤١ شعرت برغبة قوية في الكلام . . شجعني على ذلك كثيراً مستر ويليام .س. كوفين الرجل المهذب الذي سمعني أتحدث في لقاء للملونين في نيوبدفورد .

وكان هذا عبوراً حاسماً ترددت فيه . الحق كنت أشعر بنفسي كعبد ، وكانت فكرة التحدث الى البيض تثقل علي ، تحدثت لحظات قصيرة حيث شعرت بدرجة من الحرية وإذا بي أقول ما أريد بسهولة كبيـرة . منذ ذلـك الوقت وحتى الآن اصبحت منغمساً في الدفاع عن قضية اخوتي. أما بـأي درجة من النجاح أو الوفاء فأترك ذلك للذين عرفوا جهدي ليقرروه .



ملحق

حين أعيد قراءة ما سبق أجد أنني تحدثت في مواقف عديدة عن الدين بلهجة وطريقة يمكن أن تقودا من يعرفون نظرتي الدينية إلى افتراض أني معارض لكل دين . ولكي أزيل إمكانية حدوث سوء الفهم هذا ، أجد لزاماً علي أن أختلس التفسير المختصر التالي :

إن ما قلته بإزاء وضد الدين ، أعني به مباشرة « ديانة الاستعباد » لهذه الأرض ، دون أي تداخل مع المسيحية الصحيحة لأنه بين مسيحية هذه الأرض ومسيحية المسيح رأيت أوسع اختلاف ممكن . اختلاف واسع حتى أنك حين تجد احداها خيرة طاهرة مقدسة ، يكون ضرورياً أن تستنكر الاخرى كعقيدة شريرة فاسدة فاسقة . أن تكون مُريداً لاحدى الديانتين يعني أن تكون عدواً للأخرى . إنني أحب مسيحية السيد المسيح الطاهرة المسالمة غير العنصرية لذلك أكره مسيحية هذه الأرض الفاسدة المستعبِدة ، جالدة النساء ، سارقة الأطفال ، العنصرية المنافقة . إنني لا أستطيع أن أجد سبباً واحداً لأسمي عقيدة هذه الأرض بالمسيحية اللهم إلا إذا كان ذلك يقوم على الخداع . انني أراها ـ عقيدة هذه الأرض ـ قمة لكل الأخطاء ، وأعتى الخدع ، ولسرقة ثوب مملكة السماء لخدمة الشيطان . لقد امتلأتُ بالمقت حين كنت أتأمل الأبهة والتظاهر الديني تتبجح بهما الضمائر المرعبة التي كانت تحيطني من كل ناحية . لقد كان لدينا من يسرق الرجال من أجل القساوسة ، ومن يجلد النساء من أجل المبشرين ، ومن يسرق الأطفال لأعضاء الكنيسة. لقد رأيت الرجل الذي يجلد العبيد طوال الأسبوع

بالسوط الدموي العريض من جلد البقر ، هذا الرجل نفسه يصعد المنبر يوم الأحد ويسعى ليكون كاهناً ليسوع الحليم المتواضع . وكان الرجل الذي يسرق ما كسبت يداي كل أسبوع يقابلني يوم الأحد في صورة واعظ يحدثني عن أي طريق أسلكه في الحياة وأي طريق للخلاص . نفس الرجل الذي باع أختي لاستغلالها في الدعارة كان يقف أمامي مدافعاً تقياً عن الطهر ، ونفس الرجل الذي اعتبره واجباً دينياً مقدساً أن يقرأ الانجيل أنكر عليَّ حقي في تعلم قراءة اسم الله الذي خلقني . ماذا أقول أيضاً ، لقد كان المدافع المتدين عن الزواج كعلاقة مقدسة يسرق الملايين ويدفعهم إلى خراب النجاسة بالجملة ، وكان المدافع المتحمس عن قداسة العلاقات والروابط العائلية هو نفسه الذي يشتت عمل الأسر نافياً الأزواج عن الزوجات ، والأبناء عن الآباء ، والاخوة عن الأخوات ، مخلفاً الكوخ الفقير خراباً ، والبيت الصغير يبابا. لقد رأيت اللص يعظنا ضد السرقة ، والزاني يعظنا ضد الزنى ، وكان بيننا رجال يباعون ليتم بناء الكنيسة ونساء تباع لتدعيم حملة الأناجيل ، وأطفال تباع لشراء أناجيل جديدة تستخدم في التبشير والكل يحدث من أجل مجد الرب وخير الأرواح البشرية . . . ! نغمة واحدة كانت لدقات جرس المزادات لبيع العبيد ودقات جرس الكنائس ، وصيحة العبد المقهور القلب ضاعت وتلاشت في الصيحات الدينية لسيده الورع. لقد كان احياء الدين واحياء تجارة العبيد يمضيان جنباً إلى جنب ، وسجن العبيد وموقع الكنيسة قريبين من بعضهما ونسمع جلجلة القيود والسلاسل في السجن ومزامير الورع والصلاة الخاشعة في الكنيسة . والذين يتاجرون بأجساد وأرواح البشر يجعلون مكانهم بالقرب من الكنيسة ويتعاونون مع زجالها فالتاجر يقدم الدم ذهباً لتدعيم الكنيسة ، وهي بدورها تغطي أعماله المميتة بثوب من المسيحية . هنا الدين والسرقة حليفان والشياطين ترتدي زي الملائكة والجحيم في ثوب الجنة .

إله عادل ! وهؤلاء هم سدنة مذبحك
اله حق ! وتخنق أياديهم بالصلاة والبركات
أضواء الرحمة .

* * *

أي وعاظ وخطافو بشرٍ هُم؟
يحمدونك ويسرقون فقيرهم ؟
يتحدثون عن الحرية المجيدة ويسدون الأبواب على ضحاياهم ؟
أي خدم لأغراضهم أيها الابن الرحيم
الذي أتى ليخلص العبد المنبوذ ،
والمطرود والمقيد المنهوب . . .

* * *

تصادق ببلاطس وهيرودس ! . . . .
وكما حدث قديماً اتحد المصلون والحكام الكبار . .
أيها الرب العادي والقدوس ! هل هي كنيسة تلك التي
تمد المفسد بالعون ؟ .

ان مسيحية أمريكا هي مسيحية الذين يسلكون طريق المنافقين والفريسيين القدماء الذين حملوا أكتاف الناس بالخطايا بينما هم لا نصيب لهم منها ، في الوقت الذي حازوا لأنفسهم أسمى الأماكن في الأعياد الدينية ، وأعلى المقاعد في المعابد ، وناداهم الناس « ربي . ربي . ربي » ! لكن يا ويلتاه عليكم أيها المنافقون والفريسيون والمتألمون لأنكم أغلقتم مملكة السماء أمام البشر . لأنكم لم تذهبوا بأنفسكم وتعانون دخولها. انكم تنهبون المنازل وتطيلون الصلاة . تدورون حول البحار وترسون من أجل الفوز بتابع واحد للكنيسة ثم تجعلونه ابنا للجحيم . ويل لكم أيها المنافقون والمحتالون والفريسيون لأنكم تدفعون ضريبة العشر من النعناع والأنيسون والكمون وتتجاهلون القانون والعدالة والرحمة والصدق . أنتم أيها المرشدون العميان تدافعون عن بعوضة وتبتلعون جملاً . الويل لكم أيها الفريسيون والمنافقون والمخادعون لأنكم احتفظتم بالمظهر النظيف للأشياء بينما داخلها الفحش والقذارة . والويل لكم أيها الفريسيون والمحتالون لأنكم مثل الأضرحة البيضاء ، جميلة حقاً من خارجها ، ولكن داخلها عظام الموتى والعفن ، تدعون الصدق بين الناس وفي قلوبكم النفاق والبغي . .

لا بد أن ما قدمته صورة مرعبة ومظلمة ولكني صادق فيها ، وهي صادقة بالنسبة للغالبية الطاغية من محترفي المسيحية في أمريكا . . حقاً انهم يدافعون عن بعوضة ويبتلعون جملاً ، فهل هناك شيء صادق في كنائسنا ؟ قد يصدمهم اقتراح بانضمام سارق غنم ولكنهم في نفس الوقت يضمون إلى جمعهم سارق البشر. ويسمونني بالكافر إذا وجدت أنهم مخطئون في ذلك. انهم فريسيون يتمسكون بالمظاهر الخارجية للدين وفي نفس الوقت يهملون القانون والعدالة والرحمة والصدق كما قلت ، مستعدون دائماً للتضحية بغيرهم دون رحمة ، ويحترفون حب الرب الذي لا يرونه بينما يكرهون اخوتهم الذين أمام أعينهم . انهم يحبون الوثني على الجانب الآخر من الأرض ويصلون من أجل هدايته ، ويدفعون المال من أجل إنجيل يصل إلى يده ، ومن أجل المصلحين لتعليمه ، بينما يحتقرون تماماً الوثني الذي على ابوابهم .

هذه باختصار رؤيتي لعقيدة الأرض ، ومرة اخرى كي اتجنب اي سوء فهم فيهم فإني أعني بعقيدة هذه الأرض تلك التي تكشف عنها كلمات وأمثال وحركات كنائس المسيحية في الشمال والجنوب التي تتحد مع ملاك العبيد . ان ما يفعله هؤلاء هو ضد الدين ومن واجبي أن أعيد النظر فيه . . .

إنني أنهي هذه الملاحظات برسم الصورة التالية لعقيدة الجنوب ـ التي هي بالمشاركة والزمالة عقيدة الشمال ـ والتي أؤكد برجاحة عقل أنها صورة صادقة مع الحياة دون أي تضخيم أو مبالغة . لقد قيلت كلمة منذ عدة أعوام قبل بداية الثورة الحالية ضد العبودية من قبل واعظ ميثودي من الشمال طاف في الجنوب ، ووجد الفرصة ليرى أخلاق النظام العبودي وسلوكه وادعاءاته الدينية بعينيه . لقد قال « أليس ممكناً ألا أرى هذه الأشياء ؟ قل لي يا إلهي . . . هل لن تنقم روحي على أمة مثل هذه ؟» وعاشت كلمته . .

صورة هزلية

« تعالوا أيها القديسون والخاطئون استمعوا لي
كيف جلد المصلون التقاة جاك ونيل . .
واشتروا النساء وباعوا الأطفال . .
ووعدوا الآثمين بالجحيم السفلي . .
ثم غنوا لمملكة السماء »

* * *

« سوف يثغون ويأمئون مثل الماعز ، . .
ويلتهمون الشاة ويذودون عن الهباءات ، . .
ويزينون ظهورهم بالمعاطف السوداء الجميلة ، . .
ثم يمسكون بزنوجهم من رقابهم ،
ويذبحونهم من أجل مملكة السماء »

* * *

« سوف يعظونك لو حسوت رشفة . .
ويلعنونك لو سرقت مصباحاً . .
بينما يسرقون توني العجوز ودول ، وسام . .
من حقوقهم الانسانية وطعامهم . .
ويخطفون الرجال من أجل مملكة السماء . . »

* * *

« سيتحدثنون عالياً عن مكافأة الرب . .
ويتعلقون في صورته بحبل . .
ويصخبون ويلوحون اشمئزازاً بالسوط . .
ويبيعون أخاهم في الله . .
مقيد اليدين إلى مملكة السماء » .

* * *

« سيقرأون ويترنمون بالأغنيات المقدسة .
ويصلون طويلاً وبالصوت العالي .
ويتحدثون عن الصواب ويرتكبون الخطايا .
ويحيّون زحام الاخوة .
بكلمات من مملكة السماء » .

* * *

« أعجب كيف يغني أولئك القديسون . .
أو يمدحون الرب على جناح السوط ،
الذي يزأر ويصخب وهو يجلد ويلدغ ،
ملتصقاً بعبيدهم وشياطينهم . .
في مملكة الضمير الآثم . . . »

* * *

« سوف يحصدون الدخان والذرة والشيلم . .
ويسوقون ويسرقون ويخدعون ويكذبون . .
ويرفعون الكنوز عالياً ،
بالجلد والسوط الطائر . .
أملا في مملكة السماء » .

* * *

« سوف يشجون رأس توني العجوز
ويعظون ويزأرون كالثور الهائج . .
أو يصلون كأتان أحمق . .
ثم فجأة يمسكون بجاكوب العجوز
وينسفونه من أجل مملكة السماء » .

* * *

« سارق البشر المداهن المجعجع ذو الزبد على شفتيه . .

الذي يعيش على لحم الضأن والعجل والبقر . .
والذي لا يقدم الراحة أبداً ،
للمحتاجين السود أبناء الاحزان
كان كبيراً في مملكة السماء »

* * *

« لا تحبوا الدنيا . . .
قال الواعظ وغمز بعينه وضرب جبهته . .
ثم أمسك بتوم وديك ونيد
وحرمهم لحمهم وثيابهم وخبزهم
حتى يحبوا مملكة السماء »

* * *

« تحدث واعظ آخر منفحماً في البكاء ،
عن رجل يتقطع قلبه للآثمين . .
ثم ربط ناني العجوز الى سنديانة ،
وأنزف دمه مع كل ضربة سوط . .
ثم صلى من أجل مملكة السماء »

* * *

« واعظان أخران فتحا فكيهما الحديديين .
ولوحا بكفيهما سارقتي الأطفال . .
وجلس أطفالهم في بهرجة ،
جوار الزنوج الجوعى .
وعقدا اجتماعاً لمملكة السماء »

* * *

« كل شيء طيب عند جاك يأخذه آخرون . .
ويسلون غزلهم وفجرهم . .

أولئك الذين يرتدون الملابس الناعمة كالثعابين . .
ويحشون أفواههم بالكعك الحلو .
وكل هذا يذهب إلى مملكة السماء » .

* * *

وأخيراً فإنني بـاخلاص ونيـة صادقـة، آمل أن يفعـل هذا الكتـاب الصغير شيئاً في اتجاه تركيز الضوء على نظام العبودية الأمـريكي ، ويعجل باليوم السعيد الذي يتحرر فيه الملايين من اخـوتي المقيدين . وإنني أعـول بصـدق على قـوة الحق والحب والعدل للنجـاح في جهـودي المتـواضعـة ، وبخشوع أعاهد نفسي من جديد على القضية المقدسة ، وأوقع بنفسي .

فريدريك دوغلاس
لين ـ ماساشوستس ٢٨ نيسان (ابريل) ١٨٤٥

الفهرست

للمترجم

١ ـ في الصيف السابع والستين رواية دار الثقافة الجديدة القاهرة ٧٩ .

٢ ـ ليلة العشق والدم رواية مطبوعات القاهرة القاهرة ١٩٨٢ .

٣ ـ مشاهد صغيرة حول سوركيير مجموعة قصص، وزارة الثقافة السورية، دمشق ١٩٨٢ .

٤ ـ المسافات، رواية، دار المستقبل العربي، القاهرة ١٩٨٤ .

رواية من الولايات المتحدة الأميركية

مذكرات عبد أميركي

يقدم هذا الكتاب إحدى الشهادات الأولى، عن واقع العبودية في الولايات المتحدة الاميركية. ففريدريك دوغلاس كان واحداً من العبيد الذين نجحوا، أواسط القرن الماضي، في الهرب من الولايات الجنوبية، إلى الشمال. وهناك ساهم في النضالات ضد العبودية، كما كتب هذا الكتاب ـ الشهادة.

تمزج شهادة دوغلاس المعاناة الرهيبة التي عاشها السود في الولايات المتحدة، بالتوق الانساني إلى الحرية. فتجربة العبد، كما يصفها دوغلاس بدقة وحنان هي الوجه الآخر للقيم التي تأسست عليها أميركا: إبادة الهنود الحمر واستعباد السود. دوغلاس يصف العبودية لحظة وعيه لها ووعيه لأهمية الحرية. فيأتي كتابه هذا كشهادة إنسانية عن الحرية ومن أجلها.

مؤسسة الأبحاث العربية ش.م.م.
ص.ب: ٥٠٥٧ ـ ١٣ (شوران) بيروت ـ لبنان